د. نَبيــل فَــارُوقْ

الذين كانوا

رواية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

THOSE WHO WERE

دار دوّن

الذين كانوا
تأليف نبيل فاروق

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

«كما بدَأنَا أوَّلَ خلقٍ نُعيدُهُ»
سورة الأنبياء - الآيةَ (١٠٤)
صدق الله العظيم

الفصل الأول

ارتفع عواءُ ذئبٍ بَريٍّ من بعيدٍ؛ ليضيف رهبةً نمطيةً على ذلك القصر القديم، الذي بدا على ضوء البدر المكتمل أشبه بأطلال تاريخية، يضف عليها ضوء القمر الفضي ظلالًا مخيفة، جعلتها أشبه بمشهدٍ تقليديٍّ، في واحدٍ من أفلام الرعب القديمة..

وعبر ممرات القصر، التي انتشرت الرطوبة والطحالب الخضراء في جدرانها، كان الظلام هو الملك المتوَّج، الذي يسيطر على كل شيءٍ، بدءًا من صالة الاستقبال القديمة، وحتى تلك القاعة، التي -وعلى الرغم من أنها في منتصف القصر تمامًا- كان ينبعث منها ضوءٌ متردِّدٌ، أشبه بذلك الذي ينبعث من عدة أجهزة تلفاز، في قاعة مظلمة..

ولم تكن تلك القاعة خاليةً..

كان هناك عدد غير قليل من الرجال والنساء، يتحرَّكون في خفة ونشاط، حريصون على عدم تبديد شبه الصمت المحيط بهم، وهم ينشرون أجهزة حديثة، تتنافس تمامًا مع العراقة المحيطة بهم، وبعضهم يجلس أمامه شاشات متوسطة، ويضع على أذنيه أجهزة استماع دقيقة، في حين كانت هناك امرأة تعمل على لوحة أزرار، أمام جهاز يشبه شاشة الرادار، مع اختلاف ألوان الظلال عليه..

وفي منتصف القاعة تقريبًا، كان هناك رجل ملتح، يقف صامتًا، وكل اهتمامه مركَّز على جهاز صغير في يده، له شاشة بحجم ثلاث بوصات، ترتسم فوقها موجات منتظمة، ذات ألوان طيفية متعدِّدة..

كانت عينا الملتحي تراقبان تلك الموجات في اهتمامٍ وتركيزٍ عاليين، والموجات تتوالى في انتظامٍ..

وتتوالى..

وتتوالى..

ثم فجأةً، اختلَّت تلك الموجات في منتصفها، وبدا وكأن موجة إضافية قد انبعثت من مركز الشاشة تمامًا..

وارتجف جسد الملتحي في قوة، وأشار بيده إشارة صارمة حازمة، تجمَّد لها الكل في أماكنهم، في حين راح هو يتراجع بظهره في حذرٍ، وكأنما يخشى إفساد تلك الموجة الدخيلة، قبل أن يقف خلف إحدى الشاشات، ويراقبها في اهتمامٍ، ناقلًا بصره بينها وبين منتصف القاعة في حركة شبه عصبية..

وعلى الشاشات، ظهرت بقعة حمراء، جعلت الجميع يحبسون أنفاسهم، وهم ينظرون إلى القاعة، التي لم يبد عليها أي تغيير، على عكس صورها على الشاشات المختلفة..

ومع تصاعد نبضات الملتحي، الذي بدا من الواضح أنه يرأس ذلك الفريق العلمي، ظهرت دائرة حمراء وسط شاشاته، راحت تتسع وتتسع، حتى استقر حجمها..

ثم قفزت قلوب الكل في انفعالٍ..

فمن وسط تلك الدائرة، ظهر ظِلٌّ داكن..

ثم ثانٍ..

وثالث..

ورابع..

أربعة ظلال شبه بشرية، عبرت تلك الدائرة الحمراء، ووقفت أمامها ساكنة، وكأنها تتطلّع بدورها لذلك الفريق العلمي..
ومع تلك الارتجافة، التي تصرُّ على التواصل، داخل جسد الملتحي، رفع عينيه من الشاشة إلى منتصف القاعة..
كانت الظلال ودائرتها الحمراء شديدة الوضوح على الشاشة، ولكن لم يكن لها أي وجودٍ في القاعة، بالنسبة للرؤية العادية..
وفي توتر، همت إحدى الباحثات بقول شيءٍ ما، يعبِّر عن التوتر الشديد في أعماقها، ولكن الملتحي استوقفها بإشارةٍ صارمةٍ من يده، خاصة وأن أحد تلك الظلال بدأ يتقدَّم بالفعل، نحو آلات التصوير الطيفية، التي تحيط بالمكان، حتى صار في منتصف المسافة تقريبًا، بينها وبين تلك الدائرة الحمراء، ثم توقَّف، وراح يدور حول نفسه في بطءٍ، وكأنما يمنح آلات التصوير فرصة التقاط صورته، من كل الجوانب..
وفى انبهارٍ، حدَّق الكل فيما يفعله، والذي كان يبدو إراديًا بحتًا، يشف عن فهمه الكامل لما يحدث..
وبعد أن دار ذلك الظل حول نفسه دورةً كاملةً، وقف ثابتًا أمام الكاميرات، ثم رفع يده، وحرَّكها في الهواء حركةً عجيبةً، لم يفهم أحد الباحثين معناها، قبل أن يستدير، ويعود إلى الظلال الثلاثة الأخرى، ويعود الجميع إلى تلك الدائرة الحمراء، ثم يختفون داخلها..
وفي بطءٍ، صغرت الدائرة الحمراء وصغرت..
ثم اختفت تمامًا..
ولثوانٍ بعد اختفائها، حبس الجميع أنفاسهم، وكأنهم لم يستوعبوا بعد ما شاهدوه على شاشاتهم، وما سجَّلَته أشرطتهم الرقمية..
ثم تنحنح الملتح..
نحنحة وحدها كسرت حالة الذهول والانبهار، قبل أن يتحرَّك في خفةٍ، نحو منتصف القاعة، ويلقي نظرة على شاشة الجهاز الصغير في يده، والتي عادت تنقل تلك الموجات المنتظمة..
وحدها..
وهنا، اعتدل الملتحي في ارتياحٍ، ثم رفع يده الحرة بعلامة النصر؛ ليحطم حالة الصمت المأخوذ..
ومع إشارته انطلقت الهتافات الظافرة، والتهبت الأكف بالتصفيق، واندفعت باحثة شابة نحو الملتحي، وصافحته في حرارةٍ، في حين تنفَّس هو الصعداء، والتقط نفسًا عميقًا، وقد علت شفتيه ابتسامةٌ كبيرةٌ..
ابتسامة ظافرة..
جدًا..
* * *
تثاءب ذلك السائق الفرنسي في إرهاقٍ، وهو يقود سيارة النقل الثقيلة، عبر ذلك الطريق الطويل، بين مدينتي (ليل) و(كاليه)..
كانت الظروف الاقتصادية قد دفعته للعمل بضعف جهده المعتاد، منذ ثلاثة أيام، مما أورثه حالة من الإرهاق لم يشعر بها من قبل، ولكنه قاومها..
قاوم..
وقاوم..
وقاوم..

ثم لم يستطع الاحتمال أكثر..
ولأن الطريق أمامه يطول، قرَّر أن يتوقَّف لنصف الساعة؛ ليحظى بقدرٍ من النوم، يعيد إليه بعض نشاطه وحيويته..
وعلى جانب الطريق أوقف سيارته، وتثاءب مرةً أخرى، ثم أعاد مسند مقعده إلى الوراء، وتراجع بدوره مسترخيًا، و...
وفجأة، سطع ذلك الضوء القوي في وجهه..
رفع ذراعه في حركة تلقائية ليحمي عينيه من الضوء الساطع، الذي تصوَّر في البداية أنه ضوء سيارة قادمة، تنطلق في الاتجاه العكسي..
ولكنه، وقبل حتى أن يفتح عينيه، أدرك أنه مخطئٌ..
فالضوء الساطع في وجهه، لم يكن ذلك الضوء الأصفر التقليدي لمصابيح السيارات.. بل كان ضوءًا أحمر اللون..
ضوء لا يمكن أن تستخدمه سيارة عادية..
وعلى الرغم من إرهاقه، ومن الضوء الساطع، فتح عينيه، محاولًا فهم ما يحدث أمامه..
وبقدرته المحدودة على الرؤية، شاهد ما يشبه الظلال، التي تخرج في طابور منتظم، من بقعة ضوء حمراء كبيرة..
وارتجف جسده..
وقلبه..
وإحساسه..
ولثانية أو ثانيتين، حدَّق في تلك الظلال...
ولكن فجأةً اختفى كل شيء.
الضوء الأحمر..
والظلال..
اختفت كلها، وكأنها لم تكن..
وارتجف جسده مرة أخرى، وقد اتسعت عيناه في رعبٍ..
إنها أشباحٌ حتمًا..
أشباح تمرح في تلك البقعة المقفرة..
أدار محرِّك سيارته في عصبية، وفكرة أخرى تثب إلى رأسه..
أهو حلم؟!
هل استغرق في النوم دون أن يدري، وحلم بهذا الأمر العجيب؟!
هل؟!
كانت الفكرة تعربد في رأسه، وهو يدير المحرِّك..
ولكن المحرِّك لم يستجب..
كل أضواء السيارة لم تستجب..
حاول أكثر من مرة..
حاول..
وحاول..
وحاول..

ولم يستجب شيءٌ..
وهنا استعاد ذهنه الكثير مما قرأه وسمعه وشاهده في الأدب والسينما..
وسيطرت فكرة ثالثة على رأسه..
ما رآه لم يكن حلمًا..
ولم يكن أشباحًا..
إنها كائنات..
كائنات من عالم آخر..
عالم في أعماق الفضاء..
وعاد جسده يرتجف..
بمنتهى العنف..
* * *
«من (سي-١٧) إلى (هيوستن).. تم إنزال جميع معدات (لونا-١) الأوَّلية.. كرات الليزر تحدِّد الموقع للشحنات التالية.. حوِّل».
نقلَ رائد الفضاء الأمريكي تلك الرسالة، إلى قاعدة (هيوستن) الأرضية، وهو يسير على سطح القمر، في تلك البقعة شمال بحر العواصف، والتي تم اختيارها لتركيب أوَّل محطة قمرية ثابتة دائمة..
كان الخبر مبهجًا، بالنسبة للعلماء في (ناسا)([1])؛ حيث كانت تلك المعدات الأوَّلية هي الركيزة الأساسية لوضع قواعد المحطة القمرية، وضمان سلامة تركيباتها التالية..
وعبر جهاز الاتصال، المثبت في خوذته الفضائية، استمع (سي-١٧) إلى صيحات الظفر وهتافات السعادة، التي وصلته من المحطة الأرضية، فاتسعت ابتسامته، وهو يتطلَّع إلى سطح القمر الممتد أمامه، و...
وفجأةً، اتسعت عيناه عن آخرهما..
وانطلقت من حلقه شهقة قوية..
ولولا واجهة الخوذة الزجاجية، لفرك عينيه من فرط ذهوله..
فهناك..
على مسافة مائتي متر منه تقريبًا..
وعلى سطح القمر..
كان هناك رجل يمشي..
ليس رائد فضاء يرتدي حلة واقية مثله..
بل رجلاً عاديًا..
رجلاً يرتدي حُلةً خفيفةً، من قطعة فضية واحدة..
دون قفازين سميكين..
أو خزان أكسجين..
أو حتى خوذة واقية..
رجل عادي، يسير هادئًا مبتسمًا، كما لو أنه على سطح الأرض، ويتجه نحوه مباشرة..
كانت ابتسامته ودودة، كما لو أنه يرسل إليه رسالة بصرية، تعني أنه لا ينتوي به شرًا..
«ماذا يحدث عندك يا (سي-١٧)؟!.. لماذا هذه الشهقة؟!»

سمع السؤالين عبر خوذته، فغمغم ذاهلًا مأخوذًا:
- لن يمكنكم أبدًا تصديق ما أراه أمامي.
أتاه الجواب مفعمًا بالتوتر والقلق:
- صف ما تراه أمامك يا (سي-١٧).
ازدرد لعابه في صعوبةٍ، وهو يتابع ذلك الرجل يقترب بابتسامته، وأجاب في صوتٍ مبحوحٍ:
- رجل.
حمل الصوت إليه كل الدهشة.
- رجل؟!.. هل تعني رائد فضاء آخر؟!
هزَّ رأسه في شحوبٍ، مغمغمًا:
- بل رجل.
مضت لحظةٌ من الصمت، قبل أن يهتف صوتٌ آخر، من المحطة الأرضية:
- اتصال بصري.. نريد اتصالًا بصريًا يا (سي١٧).
ولكن (سي-١٧) لم يجب..
كان لسانه قد انعقد تمامًا، بعد أن صار ذلك الرجل على قيد مترٍ واحدٍ منه..
وهناك توقَّف..
لم تختفِ ابتسامته وهو ينظر إلى عينيّ رائد الفضاء الأمريكي مباشرة:
«(سي-١٧)... أجِبْ يا (سي-١٧)..»..
في تلك اللحظة التي استقبل فيها رائد الفضاء ذلك الاتصال القلق، من القاعدة الأرضية، كان يتفرَّس بكل التوتر وجه ذلك الرجل العجيب وعينيه وابتسامته الثابتة..
ليس هناك من شكٍّ..
إنه ليس رجلًا آليًا..
ليس بالمقاييس المعروفة على الأرض على الأقل..
وفي هدوءٍ شديدٍ، كشف ذلك الرجل جزءًا من ساعده الأيسر، واستخدم إظفر يده اليمنى؛ لينزع قشرة جلدية رقيقة من ساعده، وضعها في مظروف يحوي ورقةً مطويةً، وناول المظروف لرائد الفضاء، الذي التقطه في تلقائية ذاهلة..
«(سي-١٧).. أجِب... أجب للأهمية القصوى...»
انتبه في هذه اللحظة فقط للنداء المتواصل، فانتفض جسده، وقال بكل الانفعال في أعماقه:
- من (سي-١٧) إلى (هيوستن).. الأمر لن يُمكنكم تصديقه أبدًا..
استدار الرجل في هذه اللحظة، وابتعد متجهًا نحو تبة قريبة، في نفس الوقت الذي هتف فيه مسئول (هيوستن):
- أشعِل الاتصال البصري يا (سي-١٧).. دعنا نرى ما تراه..
في نفس اللحظة التي ضغط فيها (سي-١٧) زر الاتصال البصري، كان ذلك الغامض يدور حول التبة، قبل أن يختفي خلفها..
ولكن أجهزة الاستقبال في (هيوستن) التقطت الثانيتين الأخريين، قبل اختفائه.. وفي القاعدة الأرضية سادت حالة من ذهول..
ذهول بلا حدود..
على الإطلاق.

* * *

الفصل الثاني

فرك «شريف فؤاد»، محلِّل الكمبيوتر في وكالة (ناسا) الفضائية عينيه([2])، وهو يشعر بالإرهاق في كل خلية من جسده، بعد عشرين ساعة متواصلة، قضاها في استخدام برنامج خاص لإجراء تحليل طيفي مباشر، لكل جرم سماوي، يلتقطه تليسكوب (هَبِلَ) الفضائي([3])..

لم يكن يدري لماذا يصرّون على مضاعفة العمل على هذا النحو، على الرغم من أنه هناك مئات الأجرام السماوية مختلفة الأحجام، يمكن رصدها عبر (هَبِلَ) طوال الوقت..

أسبل جفنيه لحظاتٍ، مُحاوِلًا منحهما لحظات من الراحة، عندما سمع صوت رئيسه «جورج رويال»، يقول في صرامةٍ:

- هذا ليس وقت النوم أيها المصري.

فتح عينيه في سرعة، وأدارهما إلى حيث يقف «رويال»، بقامته الفارهة وملامحه الخشنة، واعتدل في جلسته وهو يغمغم في توترٍ:

- إنني أعمل منذ..

قاطعه «رويال» بخشونته المعتادة:

- يريدونك هناك.

اعتدل «شريف» أكثر، وانتعش عقله من فرط الدهشة وهو يتساءل:

- يريدونني؟!

أشار «رويال» بسبَّابته إلى أعلى، وحمل صوته، على الرغم من خشونته، قدرًا من التوتر وهو يغمغم:

- نعم.. هم.. هناك.. في أعلى.

تضاعفت حيرة «شريف»، وهو ينهض متسائلًا:

متى؟!.. ولماذا؟!

تزايد التوتر في صوت «رويال»، وهو يجيب:

- يريدونك الآن.. أما لماذا!!

هزَّ كتفيه دلالةً على عدم المعرفة، فازدرد شريف لعابه وهو يغمغم بالعربية التي لا يعرف «رويال» حرفًا واحدًا منها:

- الآن؟!.. لماذا إذًا؟!

كان يعمل في (ناسا) منذ خمس سنوات، عندما حصل على الجنسية الأمريكية، بزواجه من «درو»، التي خلبت لبَّه، بعد عامٍ واحدٍ من وصوله من (مصر)..

ومنذ عمل في (ناسا)، تعلَّم أن دوره يقتصر على تحليل المعلومات فحسب، وأنه ينتمي إلى ما يطلق عليه اسم (الفئة الرابعة)، والتي لها صلاحيات محدودة، باعتبارها فئة فنية فحسب..

أما أصحاب (الفئة الأولى)، فلم يرَهُم طوال تلك السنوات الخمس قطُّ..

كانوا أشبه بآلهة الأليمبي، في الأساطير الإغريقية القديمة([4])، يقيمون منعزلين في الطابق العلوي، ويديرون كل الأمور بضغطاتٍ على أزرار الكمبيوتر، دون الاحتكاك المباشر بالعاملين، أو حتى رواد الفضاء..

ولهذا كان استدعاؤهم له يرهبه..

ويخيفه..
ويقلقه..
وبينما حمله المصعد إلى الطابق العلوي، راح سؤال بعينه يلح على كيانه كله، على نحو متصل عنيد..
ترى ماذا يريدون منه؟!
أو ماذا يمكن أن يريدوا منه؟!
هل ارتكب خطأ فادحًا، بلغ حد استدعائه إلى الطابق العلوي؟!
أم ماذا؟!
ماذا؟!
ماذا؟!
كانت دقات قلبه تتصاعد، مع كل سنتيمتر يرفعه إلى أعلى، حتى توقَّف به ذلك المصعد الخاص، معلنًا أنه قد بلغ الطابق العلوي..
أو طابق الأليمبي، كما يطلقون عليه..
بلغت دقات قلبه ذروتها، عندما انفتح باب المصعد، وبدا له أربعة رجال صارمو الملامح، يقفون في انتظاره..
كانوا ثلاثة في زِيٍّ مدنيٍّ، والرابع يرتدي زيًا رسميًا، لجنرال في سلاح الطيران الأمريكي..
وفي صعوبةٍ، وعبر حلقه الذي صار أشبه بصحراء قاحلة، غمغمَ:
- في خدمتكم يا سادة.
أشار إليه الجنرال في صرامةٍ:
- تقدَّم يا «فؤاد».
انتبه في هذه اللحظة فقط إلى أنه ما زال يقف داخل المصعد، فدفع قدميه دفعًا إلى خارجه، ووقف محاولًا التظاهر بالتماسك، أو إخفاء ارتجافته على الأقل، أمام هؤلاء الذين لم يرهم أحد من قبل..
وبينما ظلَّ المدنيون الثلاثة صامتين، قال الجنرال بنفس الصرامة:
- هل يُمكِنُك قراءة هذه العبارة وترجمتها؟!
قالها، وهو يُناوله ورقةً مُربَّعَةً، عليها كلمات بالعربية..
وفي توتُّرٍ، التقط «شريف» الورقة، وأدارها نحوه، وقرأ ما عليها..
كانت عبارة بسيطة، مطبوعة باللغة العربية..
« كنا هنا قبلكم»..
ترجمها للواقفين أمامه، فانعقدت حواجبهم، وتبادلوا نظرة عصبية متوترة، لم يدرِ لها سببًا، قبل أن يقول أحد المدنيين في توترٍ:
- هل يمكنك قراءتها مرة أخرى يا مستر «فؤاد»؟!
قرأ فؤاد العبارة مترجمة مرة ثانية فعاد الرجال الأربعة يتبادلون تلك النظرة العصبية المتوترة..
أما هو، فقد راح يطالع تلك الورقة في دهشة، ويتحسَّسها بين سبَّابته وإبهامه في حركة دقيقة، انتبه لها ذلك الجنرال، فسأله في اهتمامٍ شديدٍ:
- ماذا يثير اهتمامك؟!
غمغمَ شريف في تردُّد:
- الورقة.. والحبر.

سأله مدنيٌّ آخر في لهفة:
- ماذا بهما؟!
حاول شريف في صعوبةٍ أن يزدرد لعابه الجاف، وهو يغمغم:
- معذرة يا سادة، ولكن والدي كان يمتلك مطبعة بسيطة في (القاهرة)، حيث وُلِدتُ ونشأت.. ولقد قضيت معظم عمري، قبل هجرتي إلى هنا، بين الورق وأحبار الطباعة، و...
قاطعه الجنرال في صرامةٍ، مكرِّرًا السؤال:
- ماذا بهما؟!
حاول شريف مرة أخرى ازدراد لعاب لا وجود له، ثم غمغم في صوتٍ شبه مبحوح:
- هذا الورق سميك، بسُمكِ مائتين وأربعين جرامًا، ولكنه خفيف الوزن إلى درجةٍ تقل عن وزن سبعين جرامًا.
بدا الاهتمام الشديد على الرجال الأربعة، في حين تساءلَ الجنرال:
- وماذا أيضًا؟!
أكملَ «شريف»:
- خامة الورق ليست طبيعته، وهو ليس مصنوعًا من لحاء الشجر، مثل الورق العادي، وليس ورقًا صناعيًا أيضًا، ويجمع الوزن مع الخامة، لا أجِدُ تفسيرًا إلا...
بتر قولَه دفعةً واحدةً، فسأله مدنيٌّ في لهفةٍ:
- إلا إذا ماذا؟!
أدار بصره في وجوه أربعتهم في توتر، فأشار إليه الجنرال بالمواصلة، إلا أنه غمغم في صعوبةٍ:
- أريد جرعة ماء.
فاجأ قوله الرجال الأربعة، إلا أنَّ أحدهم أسرعَ يَحضِرُ له كوبًا من الماء، جرعه شريف دفعةً واحدةً في لهفة، ثم مسح شفتيه بكفه، فابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة وهو يقول:
- أكمِل يا فتى.
وجد شريف ما يزدرده من لعابه هذه المرة، قبل أن يكمل:
- هذا الورق إما إنه اختراع جديد، أو...
بدا عليه التردُّد، فهتف به أحد الرجال:
- أو ماذا؟!.. تحدَّث ولا تخف.
عبارة الرجل جعلته يندفع قائلًا:
- أو أنه من الفضاء الخارجي.
تبادلَ الرجال الأربعة نظرةً شديدةَ التوتُّرِ هذه المرة، قبل أن يعقد الجنرال كفيه خلف ظهره، قائلًا:
- وماذا لو أخبرتك أنه اختراعٌ جديدٌ؟!
هزَّ «شريف» رأسه في بطءٍ، مُجيبًا:
- أوَّلًا هذا الحبر يضوي على نحوٍ لا يمكن أن يفعله حبر طباعة آخر، وله سُمكٌ قليل جدًا، و...
قاطعه الجنرال في حزمٍ:
- ربما كان اختراعًا جديدًا بدوره.
اعتدل «شريف»، وهو يقول:
- سيبقى السبب الثاني، وهو أن العبارة مكتوبةٌ بلغة لا يمكنكم فهمها، وهذا لا يتفق مع اختراع جديد تفحصونه.

تبادلوا نظرة أخرى، كما لو أن هذا هو ردُّ فعلهم التقليدي، كُلّما واجهوا أمرًا ما، ثم ابتسم الجنرال ابتسامته الخفيفة، وهو يسألُ شريف:

- ما وظيفتُكَ هنا بالضبط مستر «فؤاد»؟!

أجاب «شريف» في سرعةٍ:

- أنا محلِّل كمبيوتر، من الفئة الرابعة.

تأمَّله الجنرال لحظاتٍ، قبل أن يقول:

- تبدو لي أكثر ذكاءً من هذا.

ابتسم «شريف»، واكتفى بهز كتفيه، فتقدَّم منه الجنرال، وصافحه في احترامٍ، وهو يقول:

- نشكرك يا مستر «فؤاد».. أظنك من الذكاء، بحيث أنه ليس من الضروري أن أطلب منك أن تُبقي كل ما شاهدته هنا سرًا.

ابتسم «شريف»، قائلًا:

- وهل رأيت شيئًا هنا يا جنرال؟!

اتسعت ابتسامة الجنرال، وشدَّ على يده في قوةٍ واحترامٍ أكثر..

««شريف».. ماذا بك؟!»

ألقت عليه زوجته الرقيقة «درو» السؤال في قلقٍ، بعد أن لاحظت شرود فكره في الساعات الأخيرة، وأقلقها أكثر أن بدا لها كمن يستيقظ من حُلمٍ طويلٍ، وهو يلتفت إليها في بطءٍ، متسائلًا:

- ماذا؟!

نهضت إليه، وداعبت شعره في رقة، وهي تسأله:

- ماذا يشغل بالك إلى هذا الحد؟!.. هل من جديدٍ في العمل؟!

حدَّق في وجهها لحظات وكأنه لم يفهم ما قالته، ثم لم يلبث أن ابتسم ابتسامة شاحبة وهو يغمغم:

- لا.. لا جديد.. كل شيءٍ يسير كالمعتاد.

تطلَّعت إليه في حيرةٍ وقلقٍ أكثر، قبل أن تسأله في صوتٍ مرتجفٍ:

- هل.. هل من امرأةٍ أخرى؟!

بدت عليه الدهشة لسؤالها، ثم لم يلبث أن أطلقَ ضحكةً صافيةً، واحتضنها بين ذراعيه، هامسًا:

- وهل توجد امرأة غيرك في هذا الكون؟!

طبعت قُبلة على وجنته، ثم استكانت بين ذراعيه..

ولكن ذلك القلق لم يفارقها..

أبدًا..

فمنذ التقت به لأوَّل مرة، وهو صريح، واضح، ومباشر، وتلقائي..

ولهذا أحبَّته..

وعشقته..

وتزوَّجته..

ومنذ عرفته، لم تره شاردًا هكذا أبدًا..

ولم يخفِ عنها سرًا..

على الإطلاق..

فماذا يحدث داخله الآن؟!

ماذا؟!

ماذا؟!

* * *

«ما رأيكم أيها السادة؟!»

ألقى الجنرال «دوايت» السؤال، على مجموعة صغيرة تجلس أمامه، بينها اثنان فقط يرتديان الزي العسكري، فرانَ عليهم الصمت لحظاتٍ، قبل أن يقول أحدهم في خشونة، بدت وكأنها جزء من شخصيته:

- الشاب من أصل عربي، وهذا لا يشعرني بالارتياح..

رفع آخر يده، قائلًا:

- أنا أتفق معه في هذا الأمر.

مطَّ الجنرال «دوايت» شفتيه، وهزَّ رأسه بعدم رضًى، ثم قال في هدوءٍ حازمٍ قويّ:

- (أمريكا) بلد يقطنه مهاجرون، من كل جنسيات العالم.. والعرب جزء منهم، شئنا أم أبينا.. ومنهم رجال قانون، ومفتشوا شرطة لهم سجلات ممتازة، وحتى المخابرات المركزية تضم عددًا لا بأس به منهم.

غمغم ثالث:

- ولكن في الآونة الأخيرة.

قاطعه الجنرال دوايت بإشارةٍ صارمةٍ من يده، وهو يكمل:

- جهاز التنصُّت، الذي قمنا بزرعه في منزله، أثبت أنه يمتلك عزيمةً قويةً، حتى إنه لم يفصح عن السر لزوجته، التي تقول تحرياتنا أنه مغرم بها.

تساءل ذلك الخشن:

- أهذا يكفي؟!

رمقه الجنرال «دوايت» بنظرة صارمة، وهو يجيب:

- تتحدَّثون كما لو أنه لدينا خيار.

بدا التوتر على كل الوجوه، على نحوٍ لم يغب عن عينيه الخبيرتين، مما شجعه على أن يواصل بصرامة أكثر:

- كلكم يعلم أن هذا هذا هو الشخص المطلوب بالضبط.. ومن حُسن طالعنا أن نجد أنه يعمل لدينا.

تراجع صاحب الصوت الخشن، وهو يقول في شيءٍ من الحدة، لم يحاول حتى السيطرة عليها:

- هذا بالضبط ما يقلقني.

التفت إليه الجنرال «دوايت» بنظرة صارمة مستهجنة، ولكنه أكمل بنفس الخشونة:

- هذا لا يبدو لي طالعًا حسنًا، أو مصادفة شبه مستحيلة.

انعقد حاجبا الجنرال «دوايت» الكثين في شدةٍ، في حين أضاف رجلٌ آخَرُ في توترٍ:

- ماذا لو أن هذا كله تم ترتيبه، بحيث نلجأ إلى ذلك الشخص بالذات؟!.. ماذا يمكن أن نفعل عندئذ؟!

أجابه «دوايت» في حزمٍ:

- نلجأ إليه.

ظهر الاستنكار والاستهجان على وجوه الجميعِ، وسرت بينهم همهمة غير مفهومة، جعلت صوت الجنرال «دوايت» يرتفع ويزداد صرامة، وهو يكمل:

- لست أدري ماذا أصابكم بالضبط؟!.. ما نحن بصدده أمرٌ خارق للمألوف، ويتجاوز أقصى ما بلغته تكنولوجيتنا، حتى الشق غير المعلن منها، وهذا يعني أننا نواجه قوة لا قبل لنا بها.. ولو أن تلك القوة المجهولة.. والخارقة أيضًا، تدفعنا نحو شخصٍ بعينه، فليس أمامنا من خيارٍ سوى أن نلجأ إليه.
بقدر ما كانت كلماته صارمةً صادمةً، كانت تَحوي منطقًا تصعب مجادلته؛ لذا فقد تبادل الكل نظراتٍ مفعمةً بالتوتر، قبل أن يزفر أحدهم، مغمغمًا:
- لماذا نناقش الأمر إذًا؟!
أدار صاحب الصوت الخشن بصره في وجوه من حوله، قبل أن يبسط راحته أمام الجنرال «دوايت»، قائلًا في خشونة أكثر:
- فليكن . الجأ إليه.
وحسم هذا النقاش..
تمامًا..

* * *

لوَّح «شريف» بكفه لزوجته «درو»، وهي تودِّعه أمام باب منزلهما، هاتفة به في حُبّ:
- حاول ألا تتأخَّر.
ضحك قائلًا:
- هذا يتوقف على مزاج «رويال».
ضحكت بدورها، وتابعته ببصرها في حبٍّ واضح، وهو يستقل سيارته، وينطلق بها مبتعدًا، وملوِّحًا بيده عبر نافذتها، ثم منحته قبلةً في الهواء، قبل أن تعود إلى المنزل..
أما هو، فقد قاد سيارته، عبر الطرق التي اعتاد اجتيازها، في طريقه اليومي إلى عمله، و...
وفجأةً، انتبه إلى السيارة التي اقتربت منه في سرعةٍ، ثم جاورته بنفس سرعته، والراكب إلى جوار قائدها يشير إليه؛ للتوقُّف على جانب الطريق..
توتره دفعه لرفض تنفيذ الإشارة، وحاول أن يزيد من سرعة سيارته، ولكن سيارة (فان) سوداء اعترضت طريقه، بعد أن تجاوزته، ومالت أمامه مباشرة على نحوٍ لم يترك له خيارًا..
وتوقَّف..
شعر بتوترٍ شديدٍ يملأ كيانه كلَّه، عندما غادر رجلان يرتديان حُلتين سوداوين، ومنظارين شمسيين السيارة السوداء، التي توقفت إلى جواره مباشرةً، واتجها نحوه، وأحدهما يدس يده في جيبه، وكأنه يهم بسحب سلاحٍ ما..
وعلى الرغم من أن هذا غير مُجدٍ عمليًا، حاولَ «شريف» التقاط هاتفه المحمول في سرعةٍ؛ لطلب شرطة النجدة، إلا أن أحد الرجلين مدَّ يده عبر زجاج النافذة، واختطف الهاتف من يده بحركةٍ سريعةٍ، تشف عن خبرة ومهارة، وهو يقول في صرامةٍ:
- لا محادثات هاتفية.
قالها، وأخرج من جيبه كيسًا من القماش، المبطَّن بالرصاص العازل للموجات، ألقى فيه هاتف «شريف»، ثم أغلقه في إحكامٍ، في حين فتح الآخر الباب الأيمن، على نحوٍ جعل «شريف» يهتف في ذعرٍ:
- ماذا تريدون منِّي؟!
جلس الأيمن على المقعد المجاور له، وهو يقول في صرامة نمطية:

- نحن من وكالة الأمن القومي.. لا تقلق يا مستر «فؤاد».. نحتاج إليك لبعض الوقت فحسب.
امتقع وجهه وشحب صوته، وهو يسأل:
- لماذا؟!.. ماذا فعلت؟!
أخرج الرجل من جيبه ما يشبه القلم وهو يجيب بنفس الصرامة النمطية:
- هل ستصدقنا لو أخبرناك أننا لا نعلم؟!
قبل أن ينهي عبارته، رفع القلم أمام وجه شريف، ثم ضغط قمته، وهو يخفي أنفه وفمه بكمه..
وانطلق رذاذٌ ذو رائحة نفَّاذة في وجه شريف، الذي أدار رأسه محاولًا تفاديه وهو يهتف:
- ما هذا بالضبط؟!
ولم يدرِ ما إذا كان الرجل قد أجابه أم لا..
هذا لأنَّ حواسه كلها تداعت دفعةً واحدةً..
وأظلمت الدنيا أمام عينيه..
ثم انتهى كل شيء..
أو أنه قد بدأ..
ففجأة أيضًا، انطلق رذاذٌ آخر في وجهه..
كانت له أيضًا رائحة نفَّاذة..
تختلف تمامًا..
« تقبَّل اعتذاري، عن الأسلوب الذي أحضرناك به يا مستر «فؤاد»..
سمع الصوت وكأنه يأتي من أعماق سحيقة، وبدا له، عندما حاول أن يفتح عينيه، أنهم قد وضعوا ثقلًا على جفنيهما، فغمغم في صعوبةٍ:
- «شريف».. اسمي «شريف».
أجابه صوتٌ هادئٌ قويٌّ:
- نعرف كل شيء عنك يا مستر «فؤاد».
قاوم ليفتح عينيه في بطءٍ، وتطلَّع عبر جفنيه نصف المفتوحتين إلى الرجل الواقف أمامه، والذي بدا متين البنيان، رياضيَّ القوام، على الرغم من شعره الأشيب وملامح وجهه التي توحي باقترابه من سن الستين..
كان يرتدي زِيّ جنرال أمريكي، ولكن ابتسامته بدت حانيةً ودودًا، وهو يضيف:
- الواقع أنها ستكون المرة الأخيرة التي نفعل فيها هذا.
اعتدل شريف، وفرك عينيه وهو يقول:
- العبارة مقلقة.
غمغم الجنرال.
ربما هي عكس ما توحي به تمامًا.
بدأ «شريف» يستعيد صفاء ذهنه، فدار ببصره فيما حوله، متسائلًا:
- أين أنا بالضبط؟!
أجابه الجنرال، وهو يجلس أمامه:
- ستعرف كل شيء بعد قليل.
عاد «شريف» يدير رأسه فيما حوله مرةً ثانيةً، قبل أن يقول في حزمٍ عصبيٍّ متوترٍ:
- لماذا أحضرتموني هنا؟!.. وماذا تريدون منِّي بالضبط؟!

تراجع الجنرال في مقعده، وهو يقول:
- الواقع يا مستر «فؤاد»، أننا جميعًا في حاجةٍ إليك.
ارتفع حاجبا شريف في دهشةٍ، وهو يقول:
- في حاجة إليَّ أنا؟!
أومأ الجنرال برأسه، قائلًا:
- وبشدةٍ يا مستر «فؤاد».
تضاعفت الدهشة والحيرة في ملامح «شريف»، وهو يقول:
- ولماذا تحتاج الولايات المتحدة إليَّ بشدة هكذا؟!
صمت الجنرال لحظاتٍ، وهو يتطلَّع إليه، ثم قال:
- من الواضح أنك لم تستوعب الأمر جيدًا يا مستر «فؤاد».. عندما قلت إننا نحتاج إليك بشدة، لم أكن أقصد بـ «نحن» هذه الولايات المتحدة.
تساءل «شريف» بكل التوتر والحذر:
- مَن إذًا؟!
مال الجنرال نحوه مجيبًا:
- البشر يا مستر «فؤاد».. الجنس البشري.. كله.
وكاد قلب «شريف» يتوقف، ودهشته تتضاعف ألف مرة..
على الأقل.

* * *

الفصل الثالث

«إنجاز علمي مذهل يا بروفيسير «عمر»..»
ابتسم البروفيسير «عمر»، أستاذ الميتافيزيقا، في الجامعة الأمريكية في (القاهرة)، وداعب لحيته في زهوٍ واضحٍ، قبل أن يشعل غليونه في بطءٍ، وزميله البروفيسير «ناجي» يكمل في حماسٍ:
- إنها أوَّل مرة يتم فيها تصوير الأشباح بهذا الوضوح.
نفث البروفيسير «عمر» دخان غليونه في بطءٍ، وأشار بيده، قائلًا:
- إنها اوَّل مرة تستخدم فيها أجهزة حديثة كهذه.
أومأ البروفيسير «ناجي» برأسه متفقًا، وقال:
- ولكن ما فعله ذلك الشبح في المقدِّمة مثير للدهشة بحق.
نفث البروفيسير «عمر» دخان غليونه بشيءٍ من التوتر هذه المرة، وهو يميل نحوه متسائلًا:
- ماذا تعني؟!
اعتدل البروفيسير «ناجي»، وعاد يشير بيده، قائلًا:
- لقد وقف يستعرض جسده أمام الكاميرا، وكأنما يسعى للإعلان عن وجوده.
تمتم البروفيسير «عمر»، وتوتره يتزايد:
- ربما هذا ما عناه.
التقط «ناجي» نفسًا عميقًا، وتساءل:
- السؤال هو لماذا؟!
انعقد حاجبا البروفيسور «عمر»، وهو يقول في عصبية:
- لم أدرس هذا بعد.. ربما لو راجعت الشريط المسجَّل مرة أخرى، قد...
لم يتم عبارته، وإنما ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يتراجع مُفكِّرًا في عمقٍ..
لماذا حقًّا فعل ذلك الشبحُ هذا؟!
لماذا استعرض جسده أمام الكاميرا؟!
هل أراد أن يثبت لمراقبيه أنه يتمتع بجسدٍ مشابه لأجسادهم؟!
ولكن لماذا؟!
بم يفيد هذا؟!..
المفترض أنه شبح..
طيف لشخصٍ فارقَ عالمنا..
فلماذا سيختلف جسده؟!
لماذا؟!
البروفيسير «ناجي» على حق..
هناك لغز ما خلف هذا..
لغز يحتاج إلى إعادة تفكير..
وإعادة تفسير..
ارتفع رنين هاتفه المحمول فجأةً، بينما هو مستغرقٌ في أفكاره، فانتفض جسده في عنفٍ، على نحوٍ جعل البروفيسور «ناجي» يتراجع في سرعةٍ، هاتفًا على نحوٍ تلقائيّ:
- ماذا بك؟!

أشار إليه «عمر» أن يهدأ، والتقط هاتفه المحمول، ورأى اسم رئيس الجامعة على شاشته، فضغط زر الاتصال، وهو يقول في توترٍ، لم يفارقه بعد:
- صباح الخير يا سيِّدي.. هل...
قاطعه رئيس الجامعة، قبل أن يتم سؤاله:
- بروفيسير «عمر».. الكولونيل «أورويل» في طريقه لمقابلتك.. أرجو أن تحسن استقباله والتعاون معه.
عاد حاجبا البروفيسير «عمر» ينعقدان، وهو يتساءل في قلقٍ:
- الكولونيل «أورويل»؟!.. من هو؟! وماذا يريد منِّي بالضبط؟!
بدا توتر رئيس الجامعة واضحًا في صوته، وهو يقول:
- إنه من أمن السفارة الأمريكية في (القاهرة).. تعاون معه فحسب.. الأمر هام للغاية.
انتقل التوتر إلى البروفيسور «عمر»، وهو يقول:
- وماذا تريد منِّي السفارة الأ..
قطع رئيس الجامعة الاتصال، قبل أن يتم «عمر» سؤاله، وكأنه يعلن عدم رغبته في إجابة أيَّة تساؤلات، فارتفع حاجبا «عمر» في دهشة، مما جعل زميله «ناجي» يتساءل في قلق:
- ماذا هناك؟!
هزَّ «عمر» رأسه، مجيبًا في حيرة:
- الأمور الغامضة تتزايد، والتفسيرات المطلوبة تكثر.
غمغم ناجي، وقد أضيف القلق إلى دهشته:
- ماذا هناك بالضبط؟!
قبل أن يجيب «عمر»، انفتح باب مكتبه دون استئذان، وظهر على عتبته رجل ممشوق القوام، متين البنيان، أشقر الشعر، جامد الملامح، تساءل في صوت صارم خشن:
- البروفيسور «عمر».
رفع «عمر» يده، مجيبًا:
- إنه أنا.. أأنت الكولونيل...
قاطعه الكولونيل «أورويل» بإشارةٍ صارمةٍ من يده، وهو يدير بصره إلى حيث يقف البروفيسير «ناجي»، قائلًا في صرامة:
- هل يمكنني أن أتحدَّث معك.. وحدنا.
ضغط حروف كلمته الإنجليزية الأخيرة، وهو ينظر إلى البروفيسير «ناجي» بكل صرامة، فتنحنح هذا الأخير في توترٍ عصبيٍّ، وقال:
- أظنني سأنصرف، فلدي عملٌ هامٌّ أقوم به.
لم ينطق «عمر» بحرفٍ واحدٍ، حتى غادر «ناجي» الحجرة، فأغلق الكولونيل «أورويل» الباب خلفه، وعاد ينظر إلى «عمر»، وعقد كفيه أمامه، وهو يقول في حزمٍ:
- الواقع أن أشباحك تهمنا يا بروفيسير.
غمغم «عمر»، في دهشة مستنكرة:
- أشباحي؟!.. ومَن أدراكم بأمر أشباحي؟!
تجاهل الكولونيل السؤالين، وهو يتابع في صرامة:
- سنحتاج إلى القُرص الصلب، الذي سجَّلت عليه كل شيء.

هتف البروفيسير «عمر»، وهو يتراجع نحو جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به، وكأنه يحاول حمايته من ذلك القادم المخيف:

- القرص الصلب؟!.. من أنتم بالضبط؟!

شدَّ الكولونيل قامته، وتضاعفت صرامته، وهو يقول:

- إننا جهة مستعدة لتمويل أبحاثك، وتطويرها إلى حد لم تكن تحلم به.

غمغم «عمر» بأنفاس مبهورة:

- حقًا؟!

أشار الكولونيل بسبَّابته، مضيفًا في حزمٍ مخيفٍ:

- ولكن بشرطٍ واحدٍ.

سأله «عمر»، في تردُّدٍ وتوتُّرٍ:

- وما هو؟!

أجابه الكولونيل بكل صرامة:

- أن نحصل على النسخة الوحيدة لكل ما تم تسجيله في هذا الشأن.

حدَّق فيه «عمر» لحظات في دهشة، لم تلبث أن تحوَّلت إلى استنكارٍ غاضبٍ، وهو يقول في حدةٍ:

- وماذا لو رفضت؟!

بقى الكولونيل هادئًا صارمًا، وهو يجيب:

- رجل علم مثلك، من الخطأ أن يرفض فرصة مثالية كهذه.. إنك بإمكاناتك الحالية، بما يمكن أن توفره لك الجامعة الأمريكية من تمويل، في بحث عن الأشباح، لن تصل إلى أبعد مما وصلت إليه.. أما معنا، فالأمر سيختلف..كثيرًا.

تساءل «عمر»، في توترٍ شديدٍ:

- كيف هذا؟!

أشار الكولونيل إلى ما حوله، مجيبًا في حزمٍ:

- معنا ستملك معملًا بخمسة أضعاف حجم هذا على الأقل، وعلى ميزانيةٍ مفتوحةٍ، يمكنك أن تنفق معها الملايين؛ للحصول على كل ما يخطر ببالك من الإمكانات الحديثة.. ونحن سنوفر لك أجهزة تفوق المتاح في الأسواق بجيلين على الأقل.

بدا الانبهار على وجه «عمر»، فابتسم الكولونيل ابتسامة ظافرة باهتة، قبل أن يكمل في صوت يقطر إغراء:

- تخيَّل ما يمكن أن تصل إليه أبحاثك، مع إمكانيات مفتوحة كهذه.

تألقت عينا البروفيسير «عمر»، والتهب فضوله العلمي، وهو يتساءل في حذرٍ:

- وهل سيحدث كل هذا في (مصر) أم (أمريكا)؟!

صمت الكولونيل لحظات، قبل أن يجيب:

- وهل للعلم وطن يا بروفيسور؟!

بدا هذا جوابًا كافيًا للبروفيسير «عمر»، فانطلق خياله يتصوَّر ما يمكن حقًا أن يصل إليه، لو حصل على تلك الإمكانيات الهائلة، و...

«ولكن لماذا؟!»

انطلق السؤال من بين شفتيه كالقنبلة، حاملًا كل توتره وانفعاله، قبل أن يتابع في عصبية:

- لماذا تهتم الولايات المتحدة الأمريكية بالأشباح، إلى هذا الحد؟!

صمت الكولونيل لحظات، وكأنما يدرس رده في ذهنه جيدًا، قبل أن يقول في هدوءٍ، لا يتفق مع توتُّر «عمر»:
- لا أستطيع أن أخبرك بالتفاصيل الآن؛ لأنها تندرج تحت بند الأمن القومي، ولكن هناك أمر واحد، يمكنني أن أخبرك به لتحسن اتخاذ قرارك.
سأله عمر في توتر حَذِرٍ:
- وما هو؟!
مال الكولونيل نحوه، وهمس في أذنه، بصوتٍ كالفحيح:
- ما رصدته لم يكن أشباحًا.
واعتدل، دون أن يضيف كلمة واحدة.
ولكن العبارة، بالنسبة للبروفيسير «عمر» كانت صادمة..
للغاية..

* * *

انطلقت تنهيده ارتياح، من بين شفتي الجنرال «دوايت»، وهو ينهي محادثة هاتفية عبر المحيط، قائلًا:
- هتف أحد الرجال المجتمعون حول مائدة بيضاوية، في حجرة بلا نوافذ:
- هل وافق؟!
ابتسم الجنرال «دوايت»، وهو يعيد هاتفه إلى جيبه، مجيبًا:
- كان من العسير على عالم مثله، أن يرفض فرصة كهذه.
غمغم صاحب الصوت الخشن في عصبية:
- كلاهما مصري.. ألا يقلقك هذا؟!
بدا الجنرال هادئًا، وهو يتطلَّع إليه قليلًا، ثم يقول:
- دعني أنا أسألك: ما مشكلتك مع المصريين؟!
أجابه في عصبيةٍ:
- أنهم عرب.
مال على مائدة الاجتماعات، يسأله مرة أخرى:
- وماذا في هذا؟!
قال في حدة أكثر خشونة:
- هل انمحت ذكرى الحادي عشر من سبتمبر من ذاكرتك أم ماذا؟!(5)
تراجع الجنرال برأسه قليلًا، وحملت نظرته استهجانًا واضحًا، وهو يقول:
- ومَن منا يمكن أن ينسى هذا الحدث المؤلم.. ولكن هذا مضى منذ زمن طويل، وعلاقاتنا بالعرب جيدة هذه الأيام.
بدا صاحب الصوت الخشن عصبيًا متشنجًا، وهو يقول:
- العرب سيظلون عربًا.. وإرهابيين.
حملت شفتا الجنرال لمحة ساخرة، وهو يغمغم:
- ولَكِنَّ الإسرائيليين تموج قلوبهم بالرحمة، وتاريخهم في الشرق الأوسط يثبت هذا.
هتف صاحب الصوت الخشن في حدةٍ، وهو يهب من مقعده:
- هل تسخر منِّي يا جنرال؟!

هزَّ الجنرال رأسه نفيًا في بطءٍ، وهو يقول في حزمٍ:
- لا منك ولا من بني قومك يا رجل.. اهدأ.. إما أن تدرك خطورة ما نحن بصدده اليوم، أو تنسحب من هذه اللجنة، التي لا تحتمل أية انفعالات أو ردود فعل شخصية.
احتقن وجه الرجل في شدة، حتى تصوَّر البعض أنه سينفجر بالدماء، قبل أن يعاود الجلوس على مقعده في بطءٍ، أمام نظرات الجنرال القاسية، والذي تابعه ببصره حتى استقر على مقعده، ثم نهض إلى الشاشة الكبيرة على الجدار، وقال وكأنه يتابع حديثًا سابقًا:
- الحدث الخارق، الذي حدث على سطح القمر، لم يتكرَّر مرة أخرى، في أي مكانٍ آخر، ولكن ظاهرة أشباح الدائرة الحمراء تكرَّرت في (مصر)، و(فرنسا)، و(الهند).. ولو صنعنا خطًا، يربط أماكن تكرارها، فلن يُشيرَ إلى أيَّةِ سمة هندسية ذات معنى.
قال أحد الرجال في توترٍ:
- هذا الحديث لا معنى له إذًا.
رمقه الجنرال بنظرة صارمة؟، وتابع دون توقُّفٍ:
- ولكن الخبراء رسموا خريطة كهرومغناطيسية عبر مراجعة كل صور الأقمار الصناعية الخاصة بالطقس، تبيَّن منها حدوث خلل كهرومغناطيسي مؤقت، في المواضع التي ظهرت فيها أشباح الدائرة الحمراء، كان أقواها مع حدث في طريق (ليل) (كاليه) في (فرنسا).
تساءلَ أحد الرجال في قلقٍ:
- وماذا عن القمر؟!
اعتدل الجنرال، مجيبًا:
- لم تكن لدينا خريطةٌ كهرومغناطيسية لسطحه للأسف.
تساءلَ صاحِبُ الصوتِ الخشن في صرامةٍ:
- لم تعرفوا لماذا كان الظهور الوحيد على سطحه إذًا!!
زفر الجنرال زفرة متوترة، قبل أن يجيب:
- ما زال خبراؤنا يبحثونَ هذا، ولكنكم أيها السادة نسيتم أهمَّ أمرٍ يخص ذلك الظهور.
تطلَّعت إليه العيون في تساؤلٍ قَلِقٍ، فشدَّ قامته وهو يُجيبُ:
- تعلمون جميعًا أن كل كائنات الأرض، تحوي ضفيرتها الجينية ثلاثة وعشرين زوجًا من الكروموسومات، التي تحوي الصفات الوراثية لكل كائن.. من الإنسان، وحتى وحيدات الخلية.. كلها تحوي ست وأربعين صبغية، على شكل ضفيرة جينية، ترتبط كل زوجين فيها بقسيم مركزي، ويطلق على كل زوج اسم الكروموسوم/ و..(6)
قاطعه صاحب الصوت الخشن في حدةٍ:
- أهناك ضرورة لهذه المحاضرة العلمية.
رمقه الجنرال مرة أخرى بنظرة قاسية، قبل أن يتابع دون تعليق، في تجاهل متعمَّد واضح للمقاطعة:
- وكل ضفيرة جينية تحوي اثنين وعشرين كروموسومًا للصفات الوراثية، وزوجًا واحدًا للصفات الجنسية.
زمجر صاحب الصوت الخشن، وكأنه يكرِّر سؤاله، فبدا الضيق على الجنرال وهو يعتدل، مضيفًا في صرامةٍ:

- عينة البشرة، التي أضافها رجل القمر الغامض إلى المظروف الذي حوىَ الرسالة العجيبة، كانت تحوي ثمانية وعشرين زوجًا من الصبغيات، وليس ستة وعشرين.
ألقاها كقنبلة، اتسعت لها عيون الكل في ذهولٍ مذعورٍ، وأسقط عليهم صمتًا رهيبًا، استغرق ما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن يقطعه أحدهم، وهو يغمغم في صوتٍ مضطربٍ مُرتجفٍ:
- أيعني هذا أنه ليس بشريًا؟!
مطَّ الجنرال شفتيه، وهو يقول:
- العجيب أن الأزواج الثلاثة والعشرين من الكروموسومات، كانت بشرية مائة في المائة، ولدينا مطابقة مذهلة لها.
سأله أحد الرجال في صوتٍ مبهورٍ مبحوحٍ:
- وماذا عن الزوج الإضافي.
صمت الجنرال لحظاتٍ وهو يدير عينيه في الحاضرين، وكأنما يرصد مقدمًا تأثير كلماته التالية عليهم:
- علماؤنا فحصوا زوج الكروموسومات الأخير بدقة، وراجعوا دراساتهم خمس مرات، قبل أن يقولوا بكل تأكيدٍ: إن ذلك الزوج لا مثيلَ له إلا في كائنٍ واحدٍ فقط، من بين كل الكائنات المعروفة، على وجه الأرض.
قالها، وضغط زر جهاز تحكُّم عن بُعدٍ في يده، فاختفت الصورة من الشاشة الكبيرة، وظهرت بدلًا من الخريطة صورة كائن أرضي ميكروسكوبي.. كائن اتسعت عيون الجميع عن آخرها لدى رؤيته..
هذا لأن المفاجأة كانت صادمةً مُذهلةً..
إلى حدٍّ مُخيفٍ..
للغاية..

* * *

« أمرٌ عجيبٌ بالفعل..»
قالها الطبيب الفرنسي في حيرة حقيقية، وهو يفحَصُ نتائجَ فحوص السائق الفرنسي «سيمون»، الشاهد الوحيد لظهور أشباح الدائرة الحمراء، قبل أن يُتابِعَ، وهو يهزُّ رأسه في توترٍ:
- جسده ما زال مُحَاطاً بطاقةٍ كهرومغنطيسية ملحوظة، على الرغم من مرور هذا الوقت!!.. من الواضح أنه قد تعرَّض لمجالٍ كهرومغناطيسي فائق القوة.
غمغم رجل المخابرات الفرنسية «آلان رينيه»، الواقف إلى جواره:
- ربما حدث هذا بالفعل.
هزَّ الطبيب رأسه في قوة، قائلًا:
- ليس ربما، ولكن من المؤكَّد.
عاد «آلان» يغمغم:
- فليكن.
ثم سحب كل نتائج الفحوص، ودسَّها في حقيبة سوداء ذات أرقام سرية، وأغلقها في إحكام، والطبيب يقول معترضًا:
- بهذا لن يمكننا إعادة دراسة الفحوص.
أجابه «آلان» في صرامةٍ وهو يحمل الحقيبة منصرفًا:

- لا تشغل بالك بهذا..
تابع الطبيب ببصره في عصبية، ثم قال في حدةٍ:
- وأين ذهب السائق «سيمون»؟!.. كان هنا ثم...
قاطعه «آلان» في صرامة، دون أن يلتفت إليه:
- لم يكن هنا أبدًا.
اتسعت عينا الطبيب في دهشة، وهو يقول مستنكرًا:
- لمن تلك الفحوص، التي أجريناها هنا إذًا؟!
استدار إليه «آلان»، وحملت شفتاه ابتسامة ساخرة وهو يقول:
- أية فحوص؟!
شعر الطبيب بما يشبه الصدمة، وهو يحدِّق ذاهلًا في وجه رجل المخابرات الفرنسي..
إنها مؤامرة مدبَّرة بعناية..
اختطاف السائق..
الاستيلاء على الفحوص والنتائج..
هكذا لن يتبقَّى دليل واحد، على أن المستشفى قد استقبل ذلك السائق..
أو دليل على ما أدلى به..
ولكن مهلًا.. سجلات المستشفى سجَّلت وصول السائق..
وآلات التصوير ستثبت هذا..
كانت الفكرة تدور في رأسه عندما وصل رجل المخابرات الفرنسي إلى باب الحجرة، وأمسك مقبضه، وصمت لحظةً، ثم التفت إلى الطبيب، وقال وكأنه قد قرأ أفكاره:
- إنك حتى لن تجد ذكرًا لوصوله، في السجلات الرسمية.. ناهيك عن العُطل المحدود، الذي أصاب كاميرات المراقبة، وتسبَّب في محو مساحة من الشرائط الرقمية المسجَّلة.
شهق الطبيب، وجسده كله يرتجف بكل التوتر، فأطلق رجل المخابرات الفرنسي ضحكةً قصيرةً، وغادر الحجرة وهو يغلق الباب خلفه في إحكامٍ، تاركًا الطبيب خلفه مصدومًا..
بشدة..
* * *
سُحب الضباب كانت تنتشر في المكان في بطءٍ..
والطريق طويل..
طويل بلا نهاية..
وهو يجلس هناك، في كابينة القيادة، في سيارته الضخمة..
يجلس صامتًا..
مبهوتًا..
مبهورًا..
محدقًا في تلك الدائرة الحمراء..
الظلال تخرج منها..
وتخرج..
وهو يتابعها بلا خوف..
وبلا قدرة على الحركة..

«أنت تشعر بوجودنا.. أليس كذلك؟!»
أتى الصوت من المقعد المجاور له، فاستدار إلى مصدره في بطءٍ، وكأنما هو مشهد من فيلم سينمائيٍّ بطيءٍ..
ظِلٌّ أحمر كبير، كان يجلس إلى جواره مباشرة..
ظِلٌّ بشريٌّ..
أحمر..
داكن..
بلا ملامح..
حاول أن يجيب..
أن ينطق..
ولكنه لم يستطع..
طاقة ما كبَّلت شفتيه، وأطبقتهما، فعجز عن النطق تمامًا..
«أعلم أنك تسمعني جيدًا..»
انتبه في هذه اللحظة فقط، إلا أن ذلك الظل لا ينطق..
ولكنه يسمعه..
وبكل الوضوح..
والعجيب أنه لم يكن يشعر بالخوف على الإطلاق..
شيء ما، جعله يشعر بالاطمئنان، وهو يتطلَّع إلى ذلك الظل الأحمر الداكن..
وفي هدوءٍ، رفع ذلك الظل يده، ووضعها على كتفه..
وانتفض جسده كله..
وبمنتهى العنف..
«هل استعدت وعيك؟!»
انتزعه ذلك الصوت مما يشبه السبات، فانتفض جسده مرة أخرى، وفتح عينيه، وتطلع إلى رجل المخابرات الفرنسي الواقف أمامه، والذي تابع في هدوءٍ، لم يخلُ من نبرةٍ صارمةٍ:
- مؤشراتك الحيوية أشارت إلى أنك قد استعدت وعيك.
ظلَّ «سيمون» صامتًا لحظات قبل أن يقول:
- أين أنا؟!.. ومن أنتم؟!
كانت الدهشة من نصيب «آلان رينيه»؛ بسبب ذلك الهدوء الشديد، الذي ألقى به السائق سؤاله..
رجلٌ فقدَ وعيَهُ، ثم أفاق ليجد نفسه في حجرة مغلقة، يجلس على مقعدٍ يتصل بعشرات الأجهزة والشاشات الرقمية، كان من الطبيعي أن يشعر بشيء من التوتر..
ولكن «سيمون» بدا هادئًا..
وربما أكثر مما ينبغي..
وفي حزمٍ، سأله «آلان»:
- هل تذكر ما حدث، في طريق (ليل) (كاليه)؟!
أومأ «سيمون» برأسه إيجابًا، قبل أن يجيب بنفس الهدوء العجيب:
- وبكل التفاصيل.

حدَّق «آلان» في وجهه، وسؤال مضطرب يتراقص على شفتيه، ولكن السائق الفرنسي، تابع في حزمٍ:

- إنني أحمل رسالة لكم.

هتف «آلان» بكل الدهشة:

- لنا؟!.. مِن مَن؟!

أجابه في سرعةٍ:

- من الظلال.. الظلال الحمراء.

كانت صدمة عنيفة لرجل المخابرات الفرنسي، ولكل من يراقبون ما يحدث ويتابعونه عبر شاشات المراقبة..

ولكن «آلان»، كرجل مخابرات محترف، استعاد تماسكه وصلابته في سرعة وهو يسأله:

- وماذا تقول الرسالة؟!

مال سيمون نحوَه، وهو يقول في حزمٍ واثقٍ:

- كنا هنا قبلكم.

وهنا تراجع «آلان»، وكل من يتابعون اللقاء في عنفٍ..

فالصدمة كانت تفوق الحدود..

كل الحدود..

وبلا حدود.

* * *

الفصل الرابع

«الرسالة نفسها أيها السادة..»

قالها الجنرال «دوايت»، بكل الحزم والصرامة وهو يواجه تلك المجموعة، حول مائدة الاجتماعات، والتي راحت تتبادل نظرات متوترة، قبل أن يقول أحدها:

- لا، أيحتمل أن تكون مجرَّد مصادفة؟!

مطَّ الجنرال شفتيه، وأشار بيده، قائلًا:

- عملنا لا يؤمن بالمصادفات، وأن نواجه ظاهرتين خارقتين، تنقل إلينا كل منهما الرسالة نفسها، في توقيتٍ مُتقاربٍ إلى هذا الحد، سيكون من المضحك أن نفترض كونها مصادفة.

قال آخر:

- أيعني هذا أن أشباح الدائرة الحمراء على الأرض، هم صورة لذلك الكائن شِبه البشري، الذي التقى رائد الفضاء على القمر؟!

قال الجنرال:

- أكاد أجزم بهذا.

صمتَ لحظةً، وكأنه سيكتفي بهذا القول، ثم لم يلبث أن استدرك في حزمٍ:

- وهذا رأيُ فريق الخبراء أيضًا.

لوَّح صاحب الصوت الخشن بذراعه، قائلًا في توتُّرٍ:

- ولماذا لم يتجسَّد آخر على الأرض إذًا؟!.. لماذا دومًا ظلال داكنة حمراء؟!

أشار الجنرال بسبَّابته، مجيبًا:

- يقترح الخبراء أن هذا يتعلَّق بالاختلافات الفيزيائية، بين الأرض والقمر.. مثل الجاذبية والغلاف الجوي وغيرها.

زمجر صاحب الصوت الخشن كعادته، قبل أن يقول في حدةٍ غير مبرَّرة:

- كيف إذًا تمكَّن ذلك الكائن شبه البشري، من السير على سطح القمر، دون حلة واقية؟!

مطَّ الجنرال شفتيه، وكأنما يعاني من بطء فهمهم، وظل صامتًا لحظات ناظرًا إلى قدميه، قبل أن يعتدل، مجيبًا في حزمٍ:

- من الواضح أن السر يكمن في زوج الكروموسومات الرابع والعشرين، في ضفيرته الجينية.

أشار صاحب الصوت الخشن بيده، قائلًا في عصبية، لم يكن لها أيضًا ما يبرِّرها.

- ذلك الذي يعود إلى الكائن الميكروسكوبي البشع.

التقط الجنرال نفسًا عميقًا للسيطرة على أعصابه، ثم أجاب بأكبر قدر نجح في اصطناعه من الهدوء:

- بالضبط.

عاد الرجال يتبادلون نظرة متوترة، قبل أن يتساءل أحدهم:

- وماذا يمكن أن نفعل الآن؟!

صمت الجنرال لحظات، وكأنما يستجمع أفكاره، ثم لم يلبث أن أشار بيده، قائلًا:

- إننا نسعى لجمع فريق عملٍ من المتخصصين، القادرين على التعامل مع الأمر.

غمغم الصوت الخشن في صرامةٍ:

- فريق من الأمريكيين؟!

رمقه الجنرال بنظرة استهجانية، ثم تابع متجاهلًا سؤاله:
- ولاستكمال ذلك الفريق، قام الخبراء بعملية بحث عالمية النطاق، توصلوا بعدها إلى أنه ينقص ذلك الفريق باحث متخصِّص في التاريخ القديم.
غمغم صاحب الصوت الخشن مرةً أخرى:
- لدينا الكثير منهم.
أشار الجنرال بسبَّابته، مجيبًا في صرامةٍ:
- ولكننا نبحث عن باحثٍ في التاريخ القديم جدًّا.. تاريخ ما قبل التاريخ المعروف.
تساءل أحد الحاضرين:
- تاريخ حقبة الديناصورات؟!
التقط الجنرال نفسًا عميقًا، قبل أن يجيب في حزمٍ:
- بل تاريخ ما قبل هذا أيضًا.
هزَّ صاحب الصوت الخشن رأسَهُ في قوةٍ، ولوَّح بذراعه في حدةٍ، وهو يهتف مستنكرًا:
- قبل هذا لم تكن الأرض قد بردت بعد، وتاريخها لم يحوِ مستوى الزلازل والحُمم والبراكين.
ضغط الجنرال زر جهاز التحكُّم عن بُعدٍ، وهو يقول في حزمٍ:
- رؤيتك تختلف عن رؤية هذا الرجل.
حملت الشاشة صورة رجل في أواخر العقد الخامس من العمر، وإلى جواره بياناته الشخصية، فهتف صاحب الصوت الخشن، مستنكرًا في غضبٍ:
- لا.. ليس مصريًا آخر.
قال الجنرال في صرامةٍ:
- إنه الرجل الوحيد الصالح للمهمة.
وصمت لحظةً، قبل أن يضيف:
- الأهم أن الأبحاث كلها لن تُجرَى هنا، في الولايات المتحدة الأمريكية.
تساءل أحد الرجال:
- أين إذًا؟!
أجابه في حزمٍ:
- هناك... في (مصر).
وازداد غضب صاحب الصوت الخشن..
ألف مرة..

* * *

ارتفعت درجات الحرارة، داخل كهوف (تاسيلي)، على الحدود الليبية الجزائرية، وراح الدكتور «خالد» يحرّك كفه أمامٍ وجهه، محاولًا أن يدفع به بعض الهواء إلى بشرته الملتهبة، في حين انهمك مساعده الشاب «أنور»، مع كالبته «إلهام»، في تصوير تلك الرسوم العجيبة، على جدران الكهف، الذي يعود عمره، وفقًا لتقدير الخبراء، إلى آلاف أو مئات الآلاف من سنوات مضت..
كانت الجدران، على الرغم من هذا، تحوي رسومًا لنساء يرتدين ثيابًا حديثة نسبيًا، ويحملن مظلات واقية، ولرجال فيما يشبه زِي الغوص، يَحمِلنَ أنابيب الأكسجين على ظهورهن، وأخريات يَطِرن في الهواء، وحولهن أجسام طائرة، أقرب إلى السفن الفضائية، منها إلى الطائرات([7])..
وفي دهشة ملحوظة، ودون أن تتوقف عن عملها، غمغمت «إلهام»:

- أأنتم واثقون من عمر الرسوم على هذه الجدران؟!.. تبدو لي أحدث بكثير من العمر الافتراضي لها.
أجابها الدكتور «خالد»، وهو يجفِّف عرقه الغزير:
- التحليل الصيفي والكربوني أثبت أن عُمْرَ هذه الرسوم مئات الألوف أو ملايين السنين.
ارتفع حاجباها، وتضاعفت دهشتها وهي تغمغم:
- عجبًا!!.. تبدو لي وكأنها رسوم من القرن التاسع عشر.
أضاف إليها «أنور»، وهو يشير إلى رسم لرجل طائر:
- إنهم حتى لم يطيروا، في القرن التاسع عشر.
قالت في عنادٍ:
- ولم يفعلوا أيضًا منذ ملايين السنين.
قال الدكتور «خالد» في سرعة:
- ومَن أدراك؟!
التفتت إليه قائلةً:
- معذرة يا دكتور «خالد»، ولكن التاريخ البشري مدوَّنٌ ومعروف.
تطلع إليها لحظةً في صمتٍ، ثم قال في بطءٍ:
- حقًا؟!
لم تفهم للوهلة الأولى ما يعنيه، ولكنه ارتكن على صخرة بارزة، وهو يتابع:
- هل سألت نفسك يومًا كيف كان العالم، قبل فيضان «نوح» عليه السلام؟!
هزَّت رأسها نفيًا، فأكمل بلغة عالم شغوف:
- «نوح» عليه السلام، حمل في فلكه من كل زوجين اثنين.. أليس كذلك؟!
غمغمت في فضولٍ:
- بلى.. كان يحرص على ألا تنقرض الفصائل بالفيضان، عندما يغمر الأرض.
أشار بيده، مكملًا:
- عظيم.. ولأنه لم يكن يعلم متى سيجد يابسة، يرسو عليها فلكه، فقد حمل من الطعام والشراب ما يكفي لزمنٍ غير محدودٍ، كل من على فلكه.
أجابت في حذرٍ:
- هذا طبيعيٌّ.
مال نحوها متسائلًا في اهتمامٍ:
- لو أجريت حسبة رياضية، فكم يمكن أن يبلغ حجم فلك يحوي من كل زوجين اثنين، مع كل ما يكفيهم من طعامٍ وشرابٍ، لمدة لم يعلمها إلا الخالق عزَّ وجلَّ؟!
أجاب «أنور»، دون أن يلتفت:
- حجمٌ هائلٌ ولا شك.
تألقت عينا الدكتور «خالد»، وهو يقول:
- وعلى الرغم من هذا، لم يبدِ أحدُ دهشته للأمر.
قالت «إلهام» معترضة:
- بل أبدوا دهشتهم، وهذا مذكورٌ.
أشار بسبَّابته، مجيبًا:

- أبدوا دهشتهم على أنه عليه السلام يبني فلكًا، في موقعٍ لا بحر فيه، وليس قريبًا حتى من البحر.
ثم عاد يميل نحوها بشدةٍ، مستطردًا:
- ولم يبد أحدهم دهشته، على بناء فلك بهذه الضخامة، وبكل هذه الاستعدادات.
قالها، وتراجعَ، وعاد يجفِّف عرقَهُ، ويلوِّح بيده أمام وجهه، فسألته وقد اشتعل فضولها العلمي بشدة:
- ماذا تعني؟!
عاد يعتدل، مجيبًا في حماسٍ:
- التفسير المنطقي الوحيد، هو أن بناء فلك كهذا لم يكن أمرٌ خارقٌ للمألوف، في زمنٍ ما قبل الفيضان.. زمن «نوح» عليه السلام.
تراجعت في دهشةٍ، وكأنما صدمها التفسير، في حين توقَّف «أنور» عن عمله، والتفت إليه، هاتفًا في انبهارٍ:
- نظرية مذهلة يا دكتور!!
ابتسم الدكتور «خالد» في زهوِ عالمٍ، وتزايد حماسه وهو يقول:
- خذ قصة (النمرود) أيضًا؟، والذي سعى لبناء برج شاهق، يصل به إلى السماء.. هل تتصوَّر أن بناءً هائلاً كهذا، كان من الممكن أن يتقبله قوم، لم تبلغ تقنياتهم حدَّ بنائه.
توقَّف «أنور» عن عمله تمامًا، وجلس على حجر أمام الدكتور «خالد»، قائلًا بأنفاسٍ مبهورةٍ، وكأنه يحاول استيعاب كل هذا:
- تساؤلاتك هذه يمكن أن تقلب التاريخ رأسًا على عقب يا دكتور «خالد».
اندفعت «إلهام» تضيف في انفعالٍ:
- لو صحَّت.
ابتسم الدكتور «خالد»، وهو ينظر إليها، قائلًا:
- هل لديك تفسير لبطارية (بغداد) إذًا، أو خريطة القبطان (بيري)، والتي يؤكِّد العلماء أنها لا يمكن أن تكون بهذه الدقة، ما لم يتم تصويرها من الفضاء؟!.. ثم ماذا عن ذلك العصفور الحجري في المتحف المصري، والذي أثبتت الدراسات أنه نموذج لطائرة بكل نسبها العلمية، وليس لمجرَّد عصفور؟!([8])
تردَّدت «إلهام» لحظاتٍ، قبل أن تقول بكل الحذر:
- وهذا يعني...
لم تكمل سؤالها أو عبارتها، ولكن الدكتور «خالد» قال بكل الحماس:
- أنه كانت هناك حضارة سابقة لحضارتنا.. حضارة اندثرت لسبب ما.. حضارة أشبه بما رواه (أفلاطون) عن (أطلانتس).. حضارة تركت لنا عشرات الألغاز خلفها لكي نسعى ونبحث، أو لنعرف كيف سادت ثم بادت.. لنتعلم ألا نكرِّر أسباب اندثارها.
شعرت «إلهام» بتوترٍ شديدٍ يسري في جسدها، وهي تحاول هضم واستيعاب الفكرة، إلا أنها عجزت عن هذا تمامًا..
لقد قضت سنواتٍ، تدرس تاريخ العالم..
منذ الانفجار الكبير، الذي صنع الكون من ذرَّةٍ واحدةٍ..
درست كيف سادت الديناصورات الأرض..
وكيف انقرضت..

كيف صعدت الحضارات..
وكيف اندثرت..
ما تعلمته، من كل سنوات دراستها، هو أن عمر الإنسان على الأرض بضع عشرات من الآلاف من السنين..
أو ربما مليون عام على الأكثر..
فكيف يُمكِنُ أن تكون نظرية الدكتور «خالد» صحيحة؟!
كيف؟!
كيف يمكن أن تكون هناك حضارة، سادت الأرض منذ ملايين السنين؟!
هذا يهدم تاريخ البشرية كله، ويقلبه رأسًا على عقبٍ..
ومن المستحيل أن تؤمن بهذا..
من المستحيل أن تصدِّق أنه حقيقة..
إنها ستبقى مجرَّد نظرية..
نظرية لم تُثْبَتْ بعد..
وقد لا تثبت أبدًا..
مجرَّد نظريةٍ..
هذا أقصى ما يُمكِنُ أن تؤمنَ به..
إذا ما آمنت يومًا به..
«مستحيل!!»..
هتف «أنور» بالكلمة، لينزعها وينزع الدكتور «خالد» من أفكارهما، ويجذب انتباههما إليه، وإلى ما يفعله..
كان يُمسِكُ عدسةً مكبِّرة كبيرة، يحدِّق عبرها في نقوشٍ دقيقةٍ، أسفل ما بدا أشبه بسيارة قديمة، وسط رسوم كهوف (تاسيلي)..
وفي اهتمامٍ وفضولٍ، اندفع كلاهما نحوه، والدكتور «خالد» يهتف في لهفة:
- ماذا وجدت؟!
كان صوت «أنور» يرتجف، مشفًا عن انفعاله، وهو يشير إلى النقوش الدقيقة، مُجيبًا:
- في البداية تصوَّرتها مجرَّد نقوش.
غمغمت «إلهام» في حذرٍ متوترٍ:
- ما زالت تبدو لي كذلك!!
هزَّ رأسه نفيًا في قوةٍ، وهو يقول:
- هذا لأنك لا تنظرين إليها من الزاوية الصحيحة.
أدارت رأسها، محاولةً استنتاج زاوية الرؤية المشار إليها، والدكتور «خالد» يتساءل في لهفةٍ:
- وما الزاوية الصحيحة يا «أنور»؟!
حرَّك «أنور» كفيه في انفعالٍ، وهو يُجيب:
- هذه النقوش مقلوبة ومعكوسة.
فردَ شاشة اللاب توب الخاص به أمامهما، وظهرت عليها صورة النقوش، وهو يواصل في انفعالٍ:
- ولكن دعونا نقلبها رأسًا على عقب، ونجعلها أشبه بصورتها في مرآة.. ماذا ترون الآن؟!
اتسعت عيونهما في انبهارٍ ذاهلٍ، وهتفت «إلهام»:

- مستحيل!!
أما الدكتور «خالد»، فقد ارتجف صوته بكل انفعاله، وهو يقول:
- إنها كتابات أشبه بالعربية.
هتفت «إلهام» ذاهلةً:
- اللغة العربية لم تكن معروفة عندما وضعت هذه الرسوم.
هزَّ «أنور» رأسه في قوة، وقال في انفعالٍ:
- وهذا ما يجعل الأمر مذهلًا بحقٍّ.
مال الدكتور «خالد» برأسه، مُحاوِلًا قراءة النص على الشاشة، وهو يتساءل:
- وماذا تقول؟!
أتاهم صوتٌ من خلفهم يجيب:
- كنا هنا قبلكم.. أليس كذلك؟!
التفت الكل إلى مصدر الصوت، ووقع بصرهم على رجل أخفى الضوء القادم من خلفه ملامحه.. ولكنه أبرزَ قامته الفارهة، ومنكبيه العريضين..
وفي ذهولٍ عصبي، هتف «أنور»:
- كيف عرفت يا هذا؟!
أجابه الرجل في حزمٍ:
- المشكلة أنني لم أعرف.. ولكنني توقعت.
هتف به الدكتور «خالد» في عصبية:
- من أنت يا هذا؟!.. وماذا تريد منا؟!
شدَّ الرجل قامته، وهو يجيب في حزمٍ وصرامةٍ:
- أنا رئيسكم.
اتسعت عيونهم في دهشةٍ مستنكرةٍ، وهتفت «إلهام» في حِدَّةٍ مستهجنة:
- رئيسنا؟!
أشار بيده، قائلًا:
- باعتبار ما سيكون.
هتف الدكتور «خالد» في غضبٍ:
- ومن أدراك أننا سنقبل أمرًا كهذا؟!
أجاب بكل صرامةٍ:
- ستقبلون.
وتضاعفت صرامته، وهو يضيف:
- فليس لديكم خيارًا.
وصدمهم هذا القول الأخير..
بشدةٍ..

* * *

« هذا الورق عجيب بالفعل..!»
نطق العالم الأمريكي العبارة في دهشةٍ كبيرةٍ، قبل أن يلتفت إلى زميله، في المعمل التابع للمخابرات المركزية الأمريكية، مستطردًا:

- خامته غير معروفة في عالمنا هذا، فهي مزيج من البلاستيك، مع مادة حيوية، وقليل من التيتانيوم والألياف الصناعية.
غمغم زميله في حيرةٍ:
- ولماذا يصنع أحدهم ورقًا بكل هذا التعقيد.. إنه في النهاية مجرَّد ورق!!
تحسَّس العالم الأوَّل الورقة مرةً أخرى، قبل أن يقول:
- لا ريبَ أن له صفاتٍ خاصةً، دفعت إلى إنتاجه على هذا النحو.. أو ربما أنه ليس فعليًا مجرَّد ورقٍ.
سأله الثاني:
- ماذا يمكن أن يكون إذًا؟!
أشار الأوَّل بسبَّابته، مُجيبًا:
- ربما لو فحصناه بأنواعِ الأشِعَّة المختلفة..
لم يكمل عبارته، ولكن الثاني استوعبها، فغمغم:
- نعم.. ربما..
راحا يعدان أجهزة الأشعة المختلفة، والثاني يُكمل في اهتمامٍ:
- ربما يساعدنا هذا في معرفة طبيعة ذلك الحبر أيضًا.
مطَّ الأوَّل شفتيه، وهو يعد جهازه، قائلًا:
- التحليل الطيفي له أشار إلى كومة من التركيبات المعقَّدة.
هزَّ الثاني رأسه، وهو يقول مستهجنًا:
- ترى من أين أتى هذا بالضبط؟!.. ولماذا يعمدون إلى كل هذا التعقيد، في كل ما يبتكرونه.
توقَّف الأوَّل عن عمله؛ ليقول في قلقٍ:
- أو ربما هذا ما أرادونا أن نتوصَّل إليه.
التفت إليه الثاني، متسائلًا في توتُّرٍ:
- ولماذا؟!
أشار الأوَّل بيده، قائلًا:
- ربما لأنها رسالة، يوصلون لنا بها مدى تقدُّمهم، وقدرتهم على صنع تركيبات شديدة التعقيد.
امتقع وجه الثاني، وهو يغمغم:
- أيعني هذا أننا نواجه حضارة تفوقنا.
تطلع إليه الأوَّل لحظةً في دهشةٍ، قبل أن يقول في شيءٍ من الحدة:
- كنت أتصوَّر أن هذا يبدو واضحًا منذ البداية.
ازداد امتقاع وجه الثاني، فلوَّح العالم الأوَّل بيده، قائلًا:
- دعنا ندرس تأثير الإشعاعات المختلفة أوَّلًا.
غمغم الثاني:
- بالتأكيد.
بدأ كلاهما عملية تعريض الورقة لأطوال مختلفة من إشعاعات متغيِّرة.. استغرق الأمر أكثر من ساعتين..
وبدون أية نتائج واضحة..
وبكل الإرهاق، غمغم الثاني في إحباطٍ:

- من الواضح أن هذا ليس مجديًا.
أشار الأوَّل بيده، قائلًا:
- لم ننته بعد.. ما زال أمامنا ثلاثة اختبارات.
زفر الثاني، وهو يقول:
- دعنا ننتهي منهم إذًا.
نهض يعد جهازَ إشعاعٍ جديدًا، وضغط زره وهو يوجِّهه نحو الورقة، دون أمل في الحصول على نتائج جديدة، و...
«ما هذا؟!»
هتف العالم الأوَّل بالسؤال، وهو يميل بجسده كله نحو الورقة، التي حدَّق فيها الثاني مأخوذًا..
فمع الأشعة الأخيرة، ظهر ذلك الشيء، بين نسيج الورقة العجيبة..
الشيء الذي يمكن أن يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب..
في عنفٍ.

* * *

الفصل الخامس

بدا التوتر ملحوظًا، في ملامح وصوت الدكتور «أكرم علي»، أستاذ الفيزياء التجريبية، وهو يستقبل المقدِّم «محمد مشهور»، والذي قدَّم نفسه باعتباره مندوبًا من رئاسة الجمهورية..

وبهذا التوتر الملحوظ، سأله الدكتور «أكرم»:

- وماذا تريد منِّي رئاسة الجمهورية؟!.. هل تم ترشيحي لمنصب ما؟!

ابتسم المقدِّم «مشهور»، وهو يجيب:

- أظنها مسألة وقتٍ فحسب يا دكتور «أكرم»؛ فأبحاثك محل اهتمام الكثير من الجهات بالفعل.

بدت نظرة تساؤل واضحة في عيني الدكتور «أكرم»، فتنحنح المقدِّم «مشهور»، وشدَّ قامته وهو يتابع:

- الواقع أنه تم ترشيحك لمهمة علمية خاصة.

ارتفع حاجبا الدكتور «أكرم» بكل الدهشة، وهو يردِّد:

- مهمة علمية؟!

قال المقدِّم «مشهور» في سرعةٍ، وكأنما لا يريد أن يمنحه فرصة إلقاء سؤال آخر:

- أنت واحدٌ من أنبه العلماء، الذين يعكفون على وضع خريطة القوى الكهرومغناطيسية في (مصر).

غمغم الدكتور «أكرم» في حذرٍ:

- هذا صحيح.. إلى حدٍّ ما.

تابع المقدِّم «مشهور» في حزمٍ:

- ولهذا تم اختيارك.

صمت الدكتور «أكرم» لحظاتٍ، مُحاوِلًا هضم الفكرة، التي لم تخطر يومًا بباله أبدًا..

ترى أيَّة مهمة تلك؟!

ولماذا هو بالذات؟!

لماذا؟!

«هذا يتم بالتعاون مع.. مع الأمن القومي الأمريكي»..

قطع المقدِّم «مشهور» تساؤلاته بقوله هذا، فانتفض جسد الدكتور «أكرم»، وتراجع خطوتين في حركة حادة، قبل أن يهتف، وقد جف حلقه:

- الأمن القومي الأمريكي؟!

هتف بها في ذعرٍ واضحٍ، فانعقد حاجبا المقدِّم «مشهور»، وهو يقول في صرامةٍ:

- التعاون بين أجهزة المخابرات يحدث طوال الوقت..

غمغم الدكتور «أكرم» في اضطرابٍ:

- أيعني هذا أنك...

استوقفه المقدِّم «مشهور» بإشارةٍ صارمةٍ من كفه، وهو يقول بنفس الصرامة:

- ولتعلم إنك تفعل هذا من أجل (مصر)، وليس من أجل أية جهة أخرى.

صمت الدكتور «أكرم» بضع لحظاتٍ، امتقع خلالها وجهه، قبل أن يغمغم في شحوبٍ:

- حديثك يوحي بأنه ليس تعاونًا علميًا صرفًا.

التقط المقدِّم «مشهور» نفسًا عميقًا، قبل أن يجيب:

- إنه ليس كذلك بالفعل.
تساءلَ الدكتور «أكرم» في توترٍ:
- وماذا عن دوري؟!
أجابه المقدِّم «مشهور» في سرعةٍ:
- سيقتصر تعاونكم على الجانب العلمي.
تراجع الدكتور «أكرم» خطوةً أخرى، متسائلًا:
- تعاوننا؟!
أومأ المقدِّم «مشهور» برأسه إيجابًا، وقال في حزمٍ:
- أنت ضمن فريق علميٍّ يا دكتور.
بدا صوت أنفاس الدكتور «أكرم» واضحًا، وهو يتطلع إلى المقدِّم «مشهور» طويلًا، حتى إن هذا الأخير قال في صرامةٍ قاسيةٍ إلى حدٍّ ما:
- جوابك يا دكتور «أكرم»..
ولكن الدكتور «أكرم» استمر في صمته طويلًا:
- طويلًا جدًا..

* * *

« تطوُّر جديد ومدهش أيها السادة..»
قالها الجنرال «دوايت» في حزمٍ، لم يَخلُ من رنة توتر، وهو يشير إلى الشاشة الكبيرة، التي حملت صورة واضحة لتلك الورقة، تحت تأثير الأشعة الأخيرة..
وبكل الاهتمام والتوتر والقلق، تطلَّع الجالسون إلى الصورة، في حين تابع هو:
- ما تصوَّرناه مجرَّد ورقة، فوجئ المتخصصون بأنه أشبه بدائرة رقمية بالغة الدقة، أشبه بقرص صلب لجهاز كمبيوتر حديث.
غمغم صاحب الصوت الخشن، وهو يراقب الصورة في عصبية:
- هذا لا يشبه الدوائر الرقمية، التي نعرفها في عالمنا!!
أشار الجنرال بيده، قائلًا:
- وهذا أيضًا محل دراسة الخبراء، الذين يرون فيه تأكيدًا على أن هذا الشيء لا ينتمي إلى عالمنا على الإطلاق.
التقط نفسًا عميقًا، وكأنما يحاول تهدئة أعصابه، قبل أن يتابع:
- فتطوُّر الحضارات يسير من نقطة إلى أخرى، في منظومة متتابعة، ذات قواعد أساسية، تنتهي بها دومًا إلى نَسَقٍ متشابه، أو متوافق مع ما سبقها من تطورات، تسير على النسق نفسه..
ولكن لو بدأ التطوُّر وِفقَ نسَقٍ مُختلَفٍ من البداية، فسيتبع قواعد ذلك النسق، حتى ولو سار وِفقَ نفس النظريات العلمية، وسينتهي به الأمر إلى حالةٍ تتفق مع نسقه، ولكنها تختلف كل الاختلاف مع أيِّ نسقٍ آخر.
تساءل أحدهم بكل القلق:
- وما خلاصة كل هذا؟!
أشار الجنرال «دوايت» إلى الشاشة، مجيبًا:
- ما نراه أمامنا هو تطوُّرٌ خاصٌّ، اتبع منذ بدايته نسقًا يختلف عن النسق، الذي اتبعناه في عالمنا، ولهذا فهو يختلف عن كل ما عرفناه ونعرفه هنا.

تساءل صاحب الصوت الخشن، والذي بدا أنه أعلاهم شأنًا:
- هل تريد أن تقول إنه ينتمي إلى عالم آخر؟!
استدار إليه الجنرال في بطءٍ، وعقد كفيه أمام جسده، مجيبًا في حزمٍ:
- نعم.. هذه الورقة تنتمي إلى حضارة، لا تَمُتُّ لما نعرفه بأية صلة.
تبادَلوا كلهم نظرات عصبية متوترة، ولكنه صفَّق بيده؛ ليستعيد انتباههم جميعًا، قبل أن يضيف في حزمٍ:
- خبراؤنا يسابقون الزمن الآن، في محاولةٍ لإيجاد وسيلةٍ فعَّالة، لقراءة تلك الرسالة الخفية، التي تحويها تلك الورقة.
تساءل صاحب الصوت الخشن في عصبية:
- كنت أتصوَّر أننا قد قرأنا الرسالة بالفعل.
أشار الجنرال بيده، قائلًا:
- ما قرأناه هو الرسالة المكتوبة بالعربية، على سطح تلك الورقة الرقمية، إذا جاز أن نصفها بذلك.. ولكن من الواضح أن الدائرة داخلها تحوي رسالة أخرى، أشمل وأعم.
غمغم أحدُ الحاضرين:
- إننا لم نعلم حتى لماذا اختاروا اللغة العربية؛ لكتابة رسالتهم الخارجية تلك!!
بدت علامات التفكير على الجنرال، وهو يقول:
- لا ريب أن اختيار اللغة هو رسالة غامضة أخرى، ربما يتوصَّل الخبراء إلى فهمها فيما بعد.
هتف صاحب الصوت الخشن في عصبية:
- حديثك يمكن اختصاره في أننا ما زلنا أشبه بالعميان؛ لا ندري عما يحدث شيئًا.
مطَّ الجنرال شفتيه، وهو يجيب:
- من المؤسف والمؤلم أن هذا صحيح إلى حدٍّ ما، خاصة وأنه هناك أمر آخر، نراه أخطر من كل تلك الرسائل.. أخطر بكثير.
وامتقعت الوجوه كلها، مع اتساع العيون، في انتظار معرفة ذلك الأمر، الذي وصفه بأنه أخطر بكثير..
فماذا يمكن أن يكون أخطر مما عرفوه بالفعل؟!
ماذا؟!
ماذا؟!

* * *

اتسعت عينا الدكتور «أكرم» عن آخرهما، وهو يُحدِّق في تلك المنطقة، في قلب صحراء (مصر) الغربية، والتي دلفت إليها السيارة الكبيرة، التي حمَلَتْه من منزله، منذ خمس ساعاتٍ..
كانت وكأنها قطعةٌ من زمنٍ آخَرَ، تم نقلها إلى قلب صحراء، لا تنتمي إليها بأي حالٍ من الأحوال.. مبنى هائلٌ، محاطٌ بأسوار عالية، وحراسة أمنية بالغة، من رجال القوات المسلحة، بمُشاتهم ومدرعاتهم، وحتى دبَّاباتهم..
والمبنى نفسه بالغ الفخامة والأناقة، ويحتل مساحة كبيرة من الصحراء، في شكل دائرة مكتملة من المباني، تتوسَّطها مساحة مغطاة بقبة زجاجية عاكسة سميكة، لا يمكن لمن خارجها أن يلمح حتى ما يحدث داخلها، مهما بذل من جهد..

وما إن هبط من السيارة، على الأرض الرخامية، المحيطة بالمبنى الدائريِّ، حتى شعر ببرودتها تحت قدميه، كما لو أنها لا تتأثر مطلقًا بحرارة جو أغسطس من حولها، فغمغم في توتر، لم يستطع السيطرة عليه:

- هذا ليس رخامًا طبيعيًا.. أليس كذلك؟!

لم يجبه المقدِّم «مشهور»، وإنما أشار بيده إلى الداخل، يدعوه لعبور الباب الزجاجي السميك، فعادَ يغمغم:

- لم أتخيَّل أو أحلم قَطُّ، بأنه لدينا شيء مثل هذا في (مصر).

قال المقدِّم «مشهور» في هدوءٍ:

- مع عبورك لهذا الباب، سترى الكثير مما لم تتخيَّله من قبل قط.

مطَّ الدكتور «أكرم» شفتيه، دون أن يجيب، وسار صامتًا إلى جوار المقدِّم «مشهور»، الذي قاده عبر ممرات مكيفة الهواء، شديدة الأناقة، حتى بلغا قاعة صغيرة، جلس فيها عدد من الرجال، الذين التفتوا إليهما فور دخولهما، فتولَّى «مشهور» مهمَّةَ التعارف، قائلًا:

- مرحبًا أيها السادة.. أقدم لكم آخِر أفراد فريقكم.. الدكتور «أكرم علي»، أستاذ الفيزياء التجريبية، ورئيس فريق الخريطة الكهرومغناطيسية في (مصر).. هؤلاء هم أفراد فريقك يا دكتور «أكرم».. دكتور «خالد»، أستاذ التاريخ، والباحث في أصول الحضارات، وتلميذته النابهة «إلهام»، ومساعده الأوَّل «أنور»، والبروفيسور «عمر»، أستاذا الميتافيزيقا في الجامعة الأمريكية، والمهندس «شريف فؤاد»، خبير تحليل المعلومات الرقمية في وكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء.

بدا صوت الدكتور «أكرم» مبتهجًا، وهو يغمغم:

- كلهم مصريون.. عظيمٌ.

ابتسم «مشهور» ابتسامةً باهتةً، وهو يتابع:

- الكولونيل «أورويل»، من السفارة الأمريكية.

أومأ الدكتور «أكرم» برأسه إيماءةً تشف عن الارتياح، قبل أن يتساءل في حذرٍ:

- وماذا عن العلماء الأمريكيين؟!

قالها بالعربية، وعلى الرغم من هذا، فقد أجابه الكولونيل «أورويل» في حزمٍ:

- الدكتور «أشلي»، خبيرة الفلك وفيزياء الكون، في طريقها إلى هنا، وستصل بعد ساعتين.

تساءل الدكتور «أكرم» في أعماقه عن صلة خريطة (مصر) الكهرومغناطيسية بفيزياء الكون.. ولكنه لم يطرح سؤاله هذا..

أبدًا..

أما «شريف»، فقد بدا شديد التوتر وهو يقول:

- كلكم إما علماء في مجالاتكم، أو رجال أمن.. فماذا عنِّي أنا؟!.. أنا مجرَّد محلِّل معلومات، يمكن الاستعاضة عنه بقامات لها خبرات أكثر، وكفاءات أكبر.

تطلَّع إليه المقدِّم «مشهور» لحظاتٍ في صمتٍ، ثم تبادلَ نظرةً صامتةً حملت الكثير من المعاني، مع الكولونيل «أورويل»، قبل أن يقول في حزمٍ:

- وفقًا لما لدينا من معلومات، وعلى الرغم من غرابتها وصعوبةِ استيعابها، فأنت مخطئٌ تمامًا يا سيِّد «شريف»..

غمغم «شريف» في توترٍ، وفي فضولٍ شاركه فيه الجميع:

- من أية ناحية؟!

تبادلَ «مشهور» نظرةً أخرى مع «أورويل»، قبل أن يقولَ هذا الأخير:
- الواقع أنك الشخص الوحيد هنا، الذي يستحيل الاستغناء عنه يا مستر «فؤاد».. هذا لأنك لست مجرَّد مشارك في هذا المشروع.. بل أنت هو المشروع.
واتسعت عينا «شريف» عن آخرهما..
وعيون الجميع أيضًا..
بلا استثناءٍ..

* * *

حاولت الدكتورة «أشلي» التشاغل بقراءة كتابٍ عِلميٍّ حديثٍ، وهي تجلس داخل الطائرة، المتجهة من (نيويورك) إلى (القاهرة)، إلى جوار الجنرال «دوايت»، الذي استبدلَ زيه العسكري بحلة مدنية أنيقة، وأسبل جفنيه، متظاهرًا الاسترخاء في مقعده، في حين كان عقله يسترجع آخِرَ ساعات، قضاها مع لجنة المتابعة في (ناسا)..
كان قد ألقى قنبلته، الخاصة بوجود ما هو أخطر، فشحبت وجوه الجميع، وأطلَّ توتر مذعور من عيونهم، قبل أن يسأل أحدهم في خفوتٍ، تقاطر بالخوف والقلق:
- وماذا يمكن أن يكون أخطر من هذا؟!
أشار بسبَّابته، مجيبًا:
- ذلك الرجل الغامض، تلاشى على القمر.
لم يفهم أحدُهم ما يعنيه، فحدَّقوا في قلقٍ أكثر، دفعه للاستدراك:
- لدينا حول القمر مجسات، تلتقط الحركة على سطحه، وتلتقط صورًا بالأشعة دون الحمراء طوال الوقت.. تلك المجسَّات، عندما راجعنا ما سجَّلته، حدَّدت موقع ذلك الغامض، الذي واجه (سي-١٧) على القمر، لمسافةٍ لا تزيد عن الثلاثة أمتار.
سأله صاحب الصوت الخشن في توترٍ:
- ثم ماذا؟!
لوَّح بكفيه في الهواء، مجيبًا في انفعالٍ:
- كما أخبرتكم ..تلاشى.. تبخَّر.. اختفى، دون أن يترك خلفه أدنى أثر.
تبادلوا نظرة شديدة التوتر، قبل أن يقول صاحب الصوت الخشن في تردُّد:
- ربما اختفى داخل كهف أو...
قاطعه الجنرال في حزمٍ:
- كلا.
عادوا يتبادلون تلك النظرة المتوترة، و ..
« أأنت واثق من أنك أخبرتني كل شيء يا جنرال؟!»
قطعت الدكتورة «أشلي» ذكرياته بسؤالها هذا، فاعتدل في حركة سريعة، وقال في صرامة وصوت خافت:
- حذار يا دكتورة.. إياكِ أن تناديني بالجنرال مرة أخرى.
بدت عصبية معقودة الحاجبين، بسبب الطريقة التي خاطبها بها، فتنحنح، وحاول التخفيف من حدته، وهو يقول:
- نحن في مُهِمَّةٍ تتعلق بالبشرية كلها يا دكتورة، وهذا يستلزم منا كل الحذر والحيطة.
خفضت صوتها وهي تقول في صرامة غاضبة:

- لم تجب سؤالي بعد.
تطلَّع إليها لحظاتٍ بنظرةٍ مُستنكِرةٍ، ثم عاد يتراجع في مقعده، وهو يُجيبُ في توتُّرٍ:
- لا.. لم أخبرك بكل شيء يا دكتورة.
بدا من حركة أصابعها أنها قد توترت في شدة، فلمس كفها في رفقٍ، وهو يقول:
- اسمعيني جيدًا.. في مثل هذه المهام، يستحيل أن يحصل اللاعبون على الحقائق كلها.
قالت في حدةٍ، على الرغم من خفوتِ صوتها:
- إذًا فنحن بالنسبة لك...
قاطعها في صرامةٍ خافتةٍ:
- مجرَّد قطع شطرنج.. نعم يا دكتورة، حتى وإن كانت الحقيقة مؤلمةً، فهي في النهاية الحقيقة.. وعالمة مثلك ينبغي أن تقدر الحقيقة، أيًا كانت قسوتها.
توَّترت ملامحها، دون أن تجيب، فتابع وصرامته تتصاعد:
- كل شيء في هذا العالم يدور بالقاعدة نفسها.. حتى العِلم يا دكتورة «أشلي».. الذين يصنعون أعظم تكنولوجيا في العالم، مجرَّد قطع شطرنج، مهما كانت إبداعيتهم وعبقريتهم.. قِطع تؤدي دورها على رقعة واسعة كبيرة، تديرها عقولٌ، وترتيب القطع؛ لتحقيق أكبر مكاسب ممكنة لها.
غمغمت في عصبية:
- هذا لا يمكن أن ينطبق على العلم.
ابتسم ابتسامة شبه ساخرة، استفزَّتها أكثر، وهو يقول:
- هل تتصوَّرين هذا؟!.. أنت تكشفين مجرةً جديدةً، أو تثبتين وجود كوكب، يدور حول نجم ما، على بعد ملايين السنين الضوئية، ولكن هل تتصوَّرين أنه هناك من يضع مشروعات عملاقة، لقرنٍ قادمٍ من الزمانِ، اعتمادًا على ما تحققينه؟!
غمغمت مصدومةً:
- وماذا يُمكن أن...
قاطعها في صرامةٍ:
- أرأيتِ؟!.. ماذا يمكن أن.. سؤالٌ تُلقينه في دهشةٍ؛ لأنك لا تتصوَّرينَ أنه هناك من يفعل هذا بالفعل.
امتقع وجهها، كمن تلقَّى صدمةً كبيرةً، وغمغمت بصوتٍ مُختَنقٍ:
- رباه!.. هذا بشعٌ.
قال صارمًا:
- بل هذا ما يجعلك قادرةً على مواصلة أبحاثك، والزهو بكل ما تتوصلين إليه من نتائج.. إنه هناك من يعلم كيف يمكنه أن يستفيد من هذا.
بدا صوتها شاحبًا كوجهها، مُحبَطًا كنظراتها، وهي تتمتم:
- وهل تعرف من يدير اللعبة؟!
أطلقَ ضحكةً قصيرةً عصبيةً، قبل أن يَميلَ نحوَها، هامسًا:
- يا عزيزتي، أنا نفسي مُجرَّدُ قطعةِ شطرنج، على لوحة العالم الكبيرة:
مرةً أخرى صدمَها الجوابُ، فاتسعت عيناها، وهي تقول بأنفاسٍ مَبهورةٍ:
- حتى أنت؟!
تراجع على مقعده، وأسبل جفنيه في استرخاء، وهو يجيب في هدوءٍ حازمٍ:

- حتى أنا...

وعلى الرغم من ذهولها وفضولها، لم يضف الجنرال حرفًا واحدًا..

على الإطلاق..

* * *

« أنت هو المشروع..»

راحت العبارة تتردَّد في عقل «شريف»، وهو يرقد على فراشه الصغير، في الحجرة الأنيقة الخاصة به، داخل المبنى الدائري، حتى خيِّلَ إليه أن مخه سوف يذوب داخل جمجمته، من شدة التفكير..

لقد قالها الكولونيل «أورويل»، دون أن يفسِّرها ..

بل لقد بدا وكأنه قد شعر بالندم؛ لأنه نطقها..

حتى عندما ألقى عليه الكل أسئلتهم المتلهفة من أجل جوابٍ أو تفسيرٍ، رفض إضافة حرف واحد، واكتفى بالانسحاب من القاعة الصغيرة..

أما المقدِّم «مشهور»، فأصرَّ على أنه لا يعلم ما يعنيه هذا..

ومع توتره الشديد، كان من الطبيعي أن يحاول «شريف» الانسحاب..

بل وترك المكان كله..

و(مصر) كلها..

فقد أرعبته العبارة..

وبشدة..

لا يستطيع أن يتصوَّر نفسه مجرَّد فأر تجارب..

إنه لم يأتِ لهذا السبب..

ولم يخبره أحدهم بهذا..

ولو فعلوا لما جاء..

ولما انضم إلى الفريق..

أيُّ قولٍ هذا؟!..

بل أيُّ غباء؟!..

إنه ليس جزءًا من الفريق، بأيِّ حالٍ من الأحوالِ..

إنه العيِّنة، التي سيجري عليها الفريق تجاربه..

وهو يرفض هذا..

يرفضه في شدة..

ولكن المقدِّم «مشهور» صدمَهُ؛ بأنَّ انسحابه الآن مستحيل!

وعندما صارا وحدهما، أخبره أن مصير البشرية يتوقَّف عليه، وطلب منه أن يحصل على مهلةٍ للتفكير..

ولكنه لم يشرح له لماذا يتوقَّف مصير البشرية عليه!!

فقط أخبره..

ثم تركَه وحده..

شعر بتثاقل شديد في جفنيه، وبدوَّار يكتنف رأسه..

رباه!!.. هل دسَّ له أحدهم مخدرًا، في طعامه أو شرابه؟!

هل؟!

تزايد تثاقل جفنيه، وتضاعف دوار رأسه، وشعر بعرقٍ باردٍ يتصبَّب على جبينه، و...

وفجأة، بدا له وكأن ضوء الحجرة قد تغيَّر..

انقلب من الأبيض إلى الوردي..

ثم إلى الأحمر..

وأطرافه لم تعد قادرة على الحركة..

ومن بين جفنيه نصف المغلقين، شاهد ما يشبه دائرة حمراء، تتكوَّن في منتصف الحجرة، أمام بصره..

دائرة حمراء، احتلَّت مركز الحجرة، قبل أن يخرج من وسطها ظِلٌّ بشريٌّ أحمر داكن..

ظل وقف بينه وبين الدائرة..

وبدت الحجرة وكأنها تدور أمام عينيه..

أما ذلك الظل الداكن، فقد راحت ملامحه تظهر تدريجيًا، لتتخذ ملامح بشرية فعلية..

وعلى الرغم مما أصابه، انتفض جسد «شريف» في قوة..

فملامح ذلك الظل البشري كانت بالنسبة إليه صدمةً..

صدمة بالغة القوة..

إلى أقصى حدٍّ.

* * *

الفصل السادس

عجزت الدكتورة «أشلي» تمامًا عن السيطرة على توترها الشديد، وهي تجلس وسط أفراد الفريق، داخل ذلك المبنى الدائري، والجميع يستمعون إلى «شريف» في ذهولٍ بالغ التوتر، وهو يروي تجربته للجنرال «دوايت»، الذي لم يخلُ بدوره من التوتر، بعد أن استقبلته تلك الصدمة الجديدة، فور وصوله مع خبيرة فيزياء الكون إلى (القاهرة)..

أما «شريف» نفسه، فقد بدا في حالة يُرثَى لها، وجسده كله يرتجف في انفعالٍ، مع روايته لما حدث..

وبكل توترها، هتفت «إلهام»:

- لا أستطيع تصديق هذا!!

أشار إليها الدكتور «خالد» بالصمت، في حين همس «أنور» في أذنها:

- تماسكي.

انفرجت شفتاها، وكأنها ستعلّق بعبارةٍ أو كلمةٍ، إلا أنها لم تلبث أن اكتفت بهز كتفيها، وعادت تستمع إلى «شريف»، الذي لوَّح بذراعيه، وهو يقول في شِبه انهيار:

- تجربة رهيبة.. أكثر تجربة رهيبة مررت بها في حياتي.

غمغم الدكتور «أكرم»:

- ألا يحتمل أنها مجرَّد هلاوس بصرية بسبب حالة الإجهاد العقلي التي وصفتها.

حمل صوت «شريف» عصبية، وهو يقول:

- لم يكن إجهادًا عقليًا.. لقد دسُّوا شيئًا، في طعامنا أو شرابنا.

انعقد حاجبا الكولونيل «أورويل» في استنكارٍ، وغمغم المقدِّم «مشهور» في صرامةٍ:

- كيف يُمكِنك أن تفكّر في هذا؟!

ولكن البروفيسير «عمر» بدا أكثرهم توترًا، وهو يقول:

- ليست هلاوس ..لقد وصف ما رأيته بأُمّ عيني من قبل.

التفتت إليه العيون المتسائلة، ولكن الجنرال «دوايت» عاد يجذبها إليه، وهو يقول:

- وما وصفه «سيمون»؟!

اعتدل المقدِّم «مشهور»، وهو يسأله في قلق:

- مَن «سيمون» هذا؟!

أجابه الجنرال، وهو يعود ببصره إلى «شريف»:

- سائق فرنسي، مرَّ بالتجربة ذاتها، في الطريق بين (ليل) و(كاليه).. ظلال داكنة بلا ملامح، تخرج عبر دائرة حمراء، و...

قاطعه «شريف» بكل توتره:

- ماذا تعني بأنها بلا ملامح؟!

اعتدل البروفيسير «عمر»، وهو يقول في اهتمامٍ:

- هكذا سجلنا صورتها، و..

قاطعه «شريف» في عصبية:

- ولكن ما رأيته كانت له ملامح واضحة.

اهتزَّ كيان الكل مع قوله هذا، وهتف الجنرال «دوايت» يسأله في لهفة:

- كانت له ملامح؟!
أجابه بكل عصبيته وتوتره:
- بكل تأكيد.
هتف البروفيسير «عمر»:
- هذا تطوُّر مدهش.
غمغم الكولونيل «أورويل»:
- بالتأكيد.
مال الجنرال «دوايت» نحو «شريف»، وسأله بكل الاهتمام:
- لو أحضرت لك رسَّامًا محترفًا، هل يمكنك أن تصف له ملامح ذلك الشيء.
أجابه «شريف»، وتوتره وعصبيته يتزايدان:
- لست بحاجة إلى أي رسام، إنني أستطيع وصفه في دقة تفوق كل تصوراتكم.
كاد البروفيسير «عمر» يثب من مقعده، وهو يهتف به:
- ولماذا كل هذه الثقة؟!
التفت إليه «شريف»، وهو يقول في ذروة عصبيته:
- لأن من رأيت ملامحه كان معروفًا لي جدًّا، وأراه كل يوم في الصباح.
هتف الجنرال «دوايت»:
- أين تراه؟!
أجابه في اندفاع:
- في المرآة.. فمَن رأيته كان أنا.. نسخة منِّي أنا.
وتفجَّر قوله كقنبلة رهيبة..
للغاية ..

* * *

«إنهم يخفون عنا الكثير..»
قالها المقدِّم «مشهور»، وهو يتحدَّث مع رئيسه، عبر خط تليفوني محمول مؤمَّن، فصمت رئيسه لحظةً، قبل أن يقول:
- الأمريكيون دومًا يفعلون هذا.. يطلبون تعاوننا فقط لكي يفيدوا منا.. غرورهم وغطرستهم توهمهم بأنهم الأذكى والأبرع، والأقدر على إدارة شئون العالم.
سأله «مشهور»:
- لماذا نتعاون معهم إذًا؟!
أجابه في سرعة:
- لأننا بهذا نحصل على جزءٍ مما يعرفونه.
ابتسم «مشهور» ابتسامة خفيفة، وهو يقول:
- ونستكمل المعرفة بوسائلنا الخاصة.
أجابه رئيسه في حزمٍ:
- بالطبع.
اعتدل «مشهور» وهو يقول:

- كَوْني رجل الأمن المصري الوحيد، الذي يتعامل معه الفريق، سيساعدني على مدِّ أحبال التواصل والود، بيني وبين المصريين منهم، وأنا واثقٌ من وطنيتهم، ومن أنهم لن يتوانوا عن مدنا بكل ما يصلهم من معلومات.

قال رئيسه في اهتمامٍ:

- المهم ألا يشعر الأمريكيون بهذا.

اتسعت ابتسامة «مشهور» قليلًا، وهو يقول في حزمٍ:

- سيادة اللواء.. نحن محترفون.

أجابه في حزمٍ:

- ما مِن شكٍّ في هذا.

«ما تقوله خطير جدًا يا جنرال..»

في نفس اللحظة، التي أنهى فيها «مشهور» اتصاله برئيسه، كان صاحب الصوت الخشن ينطق هذه العبارة، عبر اجتماع فيديوي، يجريه الجنرال «دوايت» مع مسئولي «ناسا»، فأجاب هذا الأخير، وهو يتراجع في مقعده، أمام شاشة الكمبيوتر الكبيرة، التي انقسمت إلى سبع شاشات صغيرة:

- ولكنه يتفق مع المعطيات الأوَّلية لدينا، ويؤكِّد أن ضم «شريف فؤاد» إلى الفريق كان حتميًا.

سأله آخر في اهتمام:

- متى تنوي مصارحتهم يا جنرال؟!

أجابه الجنرال على الفور، وكأنه كان يتوقَّع السؤال:

- سأصارحهم بما يحتاجون إلى معرفته فحسب.

تساءل ثالث، في حذرٍ قلِقٍ:

- ألن يحول هذا بينهم وبين الحقيقة؟!

صمت الجنرال لحظاتٍ، وكأنما يقيِّم الأمر في ذهنه، قبل أن يقول:

- سأحرص على ألا يحدث هذا.

وعلى الرغم من أنه يرى كلًّا منهم منفردًا على شاشة فرعية مستقلة، لاحظ أنهم تبادلوا نظرة قلقة، تشف عن عدم الارتياح، قبل أن يتساءل صاحب الصوت الخشن:

- وماذا عن المصريين؟!

انعقد حاجبا «دوايت»، وهو يجيب في خشونةٍ مُماثلةٍ:

- لقد ناقشنا هذا الأمر من قبل.

أجابه في شيءٍ من الحِدَّةِ:

- لست أقصد فريقك، بل أقصد الآخرين.

غمغم الجنرال في حذرٍ صارمٍ:

- الآخرين؟!

زمجر صاحب الصوت الخشن كعادته، قبل أن يجيب:

- السلطات المصرية.. هل تضمن تعاونهم المخلص؟!

عاد الجنرال إلى صمته بضع لحظات، قبل أن يقول في بطءٍ وكأنما يحرص على أن تصل كلماته إليهم في وضوحٍ:

- إننا نعمل داخل أكبر مركز عِلميّ سِريٍّ لديهم.. يتبع قواتهم المسلحة مباشرة.. وهناك ضابط مخابرات مصري، يشرف على العمل، وكل شيء يبدو مثاليًا في الظاهر.
غمغم صاحب الصوت الخشن في توتر:
- في الظاهر فحسب؟!
أجابه الجنرال في حزمٍ:
- في عالم المعلومات، لا يمنحُكَ أحدهم تعاونه الكامل، دون أن يسعى للحصول على كل ما لديك، بكل وسيلة ممكنة.
قال أحدهم في توترٍ:
- هذا يصنع بيئة عمل غير مريحة.
أجابه بنفس الحزم:
- بعد سنواتٍ من العمل والخبرة، تجيد التعامل في هذه البيئة، و...
قاطعه رنين هاتفه المحمول، فالتقطه من جيبه في سرعة جعلت صاحب الصوت الخشن يزمجر على الشاشة، هاتفًا:
- المفترض في اجتماعنا ألا...
قاطعه الجنرال في حدة صامتة:
- اصمت.
وعلى الرغم من صدمة صاحب الصوت الخشن، إلا أنه والآخرون، لاحظوا ذلك المزيج من الاهتمام والتوتر على وجه الجنرال «دوايت»..
وخفقت قلوبهم في عنفٍ..
فقد كان من الواضح أنه يتلقى معلومة جديدة خطيرة..
خطيرة جدًا..

* * *

راجع الدكتور «أكرم» نتائج فحوصه خمس مرات، قبل أن يتراجع في مقعده، ويلتفت إلى الدكتور «خالد»، قائلًا:
- لم يكن هذيانًا.
انعقد حاجبا الدكتور «خالد»، في حين غمغمت «إلهام»:
- حقًا؟!
أومأ الدكتور «أكرم» برأسِه إيجابًا، وأشار بيده، وهو يقولُ في توتُّرٍ:
- حدثت فجوةٌ كهرومغناطيسية بالفعل، داخل حجرة المهندس «شريف»، في نفس التوقيت، الذي شاهد فيه ما وصفه.
غمغمت «إلهام»:
- ولكنه رأى نفسه يخرج من تلك البقعة الحمراء، وهذا يبدو لي أشبه بالهذيان منه بالحقيقة.
اكتفى الدكتور «أكرم» بقلب كَفَّيه، دلالةً على الحيرة، في حين تمتم الدكتور «خالد»، وكأنه يحادث نفسه:
- هناك تفسير ما حتمًا.
تساءلت متوترة:
- أيُّ تفسيرٍ؟!

تنحنح الدكتور «خالد»، قبل أن يقول:
- أظن أنه ينبغي توجيه هذا السؤال إلى البروفيسور «عمر».. أليس خبيرًا في الميتافيزيقا(9).
تلفَّتَت «إلهام» حولها، قبل أن تتساءل في قلقٍ:
- بالمناسبة.. أين هو؟!
هزَّ الدكتور «خالد» رأسه نفيًا، وقال:
- كل ما أعلمه، هو أن رجل الأمن المصري اصطحبه مع «شريف» إلى مكانٍ ما.
تساءل الدكتور «أكرم» في توتُّرٍ:
- إلى أين؟!.. ولماذا؟!
«نريد فقط التيقُّن مما رأيته..»
قالها المقدِّم «مشهور» لـ «شريف»، الذي يجلس متوترًا على مقعد خاص، يتصل بعدة شاشات، وكومة من الأسلاك، وسط حجرة بلا نوافذ، يقف فيها الكولونيل «أورويل»، متطلعًا إليه في اهتمامٍ كبيرٍ، والبروفيسير «عمر» يجلس خلف ثلاث شاشات كبيرة، فغمغم «شريف» في عصبية:
- هل تعتقد أنني كذلك؟!
جلس «مشهور» على مقعد أمامه، وهو يقول في هدوءٍ:
- مُطلَقًا.. أنا.. بل كلنا واثقون من أنك تؤمن تمامًا بأنك قد شاهدت ما وصفته.
قال «شريف» في عصبية:
- لأنني شاهدته بالفعل.
أشار إليه البروفيسور «عمر»، قائلًا:
- لا تقلق يا صديقي.. كل ما نفعله هنا، هو لمساعدتك على تذكُّر التفاصيل الدقيقة فحسب.
سأله بكل توتره:
- وكيف يُمكنكم هذا؟!
أشار البروفيسير «عمر» إلى قُرصٍ لامعٍ، في مواجهة «شريف» تمامًا، وهو يجيب:
- بالتكنولوجيا.
حدَّق «شريف» في ذلك القرص في توتر، فابتسم البروفيسير «عمر»، مكملًا:
- امنحني ثقتك يا صديقي.. نحن نعمل في فريقٍ واحدٍ.
قال «شريف» في عصبية:
- كلا.. أنتم فريق، وأنا مشروعكم.. هل نسيت ما قاله ذلك الأمريكي.
رمق «مشهور» الكولونيل «أورويل» بنظرة قاسية، قبل أن يقول:
- ربما لم يحسن التعبير فحسب.
تبادل البروفيسير «عمر» نظرة صامتة مع المقدِّم «مشهور»، ثم أشار إلى «شريف»، ثم إلى ذلك القرص اللامع، قائلًا:
- انظر إليه فحسب يا صديقي، وثِق في أنني مصري مثلك، ولن أفعل شيئًا يسيء إليك قط.
حاول «شريف» أن يهدأ ويتماسك، وهو ينظر إلى ذلك القرص في حذرٍ، فضغط البروفيسير «عمر» زرًا افتراضيًا على شاشة اللمس أمامه، فبدأ ذلك القرص يدور، وهو يضيء وينطفئ بألوان مختلفة.
ثم راحت سرعته تتزايد..
وتتزايد..

وتتزايد..
والضوء المنبعث منه بدا وكأنه يحيط به..
بل شعر «شريف» وكأنه يخترق عقله، ويستقر في ثنايا مخه، و...
وفجأةً، اختفت الحجرة من حوله..
ووجد نفسه في مكانٍ آخر..
في حجرته..
يرقد على فراشه..
وأمامه يخرج ذلك الظل الأحمر، من وسط فجوة في منتصف الحجرة..
ثم راحت ملامح الظل الأحمر تتضح..
وتتضح..
وتتضح..
«عرفتني.. أليس كذلك؟!»
قالها الظل بالعربية، وهو يبتسم في مودة..
وتفجَّرت قنبلة من الانفعالات، في كل خلية من خلايا «شريف»..
قنبلة كادت تودي بحياته..
تمامًا..

* * *

حمل صوت عالِمَيّ «ناسا» كل التوتر والانفعال، وهما يتحدثان إلى الجنرال «دوايت»، عبر اتصال مرئي، والأوَّل يقول:

- ليست مجرَّد دائرة يا سيدي الجنرال.

تساءل «دوايت» في توتر:

- متى ستنتهي مفاجآت تلك الورقة؟!

أجابه الثاني:

- لقد حاولنا مقارنتها، بكل الدوائر الرقمية، المعروفة على كوكب الأرض، عندما حدثت المقارنة مع خريطة رقمية.

تساءل «دوايت»:

- خريطة إليكترونية؟!

أجابه الأوَّل بكل توتره:

- بل خريطة جغرافية يا جنرال.

اعتدل «دوايت» في اهتمامٍ، ومال نحو شاشة الاتصال، وهو يسألهما:

- لأي موقع على الأرض.

تبادل العالمان نظرة متردِّدة متوترة، قبل أن يقول الأوَّل:

- ليس موقعًا جغرافيًا أرضيًا يا جنرال.

حمل صوت الجنرال «دوايت» انبهاره، وهو يسألهما:

- أين إذًا؟!

أجابه الثاني مندفعًا:

- القمر.

تراجع «دوايت» في مقعده بحركة مفاجئة، هاتفًا:
- القمر؟!
قال الأوَّل، في صوتٍ ارتجف من فرط الانفعال:
- نعم يا جنرال.. موقع بالقرب من ذلك المكان، الذي ظهر فيه الرجل الغامض.. خريطة دقيقة للغاية، ومطبوعة بنظام ثلاثيّ الأبعاد.
بدا الجنرال شديد الاهتمام، وهو يسأل:
- وكيف هذا؟!
أجابه الثاني في سرعة:
- عندما عرضناها لخيطٍ من الفيمتوليزر، بزاوية خمس وأربعين درجة، ظهر أمامنا مُجسَّم هولوجرامي للمكان، مع تخطيطٍ سِلكيٍّ له.
تساءل الجنرال، وهو يسيطر على انفعالاته بكُلِّ قوَّته:
- هل تعتقدان أنهم يحاولون إرشادنا إلى مكانٍ ما.
تبادَلَ العالمان نظرةً أخرى، قبل أن يُجيبَ الأوَّل في حزمٍ:
- بكل تأكيد.
تراجع الجنرال في مقعده، وراح يداعب عقله لحظات، وهو يفكِّر في عمقٍ شديدٍ، قبل أن يعتدل في حركة حادة، قائلًا:
- صِلاني بـ «سي -١٧»
غمغم الثاني، وهو يضغط زِرًا أمامه:
- فورًا يا سيادة الجنرال.
اختفت صورة العالِمَيْن على الفور، وظهرت صورةُ حجرةٍ أخرى، يجلس فيها رائد الفضاء «ميلوري»، الذي يحمل الرمز الكودي «سي- ١٧»، والذي التفت إلى الشاشة، فور سماعه إشارة الاتصال، واعتدل في احترامٍ؛ عندما رأى صورة الجنرال «دوايت» على الشاشة، وقال:
- أوامرك يا جنرال.
مال الجنرال نحو الشاشة، وهو يسأله في اهتمامٍ:
- قل لي يا «سي-١٧».. هل رصدَتْ أجهزتك وجود أية إشارات غامضة على القمر، يوم التقيت بذلك الـ... الشبح.
ازدرد «ميلوري» لعابه في صعوبةٍ، كما لو أن تلك الذكرى ما زالت تزعجه في شدةٍ، وغمغم:
- كلا يا جنرال.. فقط تلك المقابلة العجيبة، و...
بتر عبارته دفعة واحدة، وحملت عيناه نظرة فزع، وهو يحدِّق في الجدار خلف الجنرال «دوايت» مباشرة، مما جعل هذا الأخير يستدير في تلقائية، لينظر إلى الجدار نفسه، حيث تراصت صور أفراد الفريق، قبل أن يعود ببصره إلى «ميلوري»، متسائلًا:
- ماذا هناك يا رجل؟!
وعلى الرغم من أن دوايت رائد فضاء محنَّك، فقد ارتجف صوته في شدةٍ، وهو يهتف:
- إنه هو...
قالها، وهو يشير بسبَّابته إلى الجدار، مما حدا بالجنرال إلى الالتفات إليه مرةً أخرى، متسائلًا في انفعالٍ:
- مَن تَعني؟!

هتف «ميلروي» بكل انفعاله:
- الذي شاهدته على القمر.. إنه هو.
واتسعت عينا الجنرال عن آخِرهما..
فقد كان «ميلوري» يشير إلى صورة «شريف فؤاد»..
مباشرة.
* * *

الفصل السابع

«ولكن.. ولكنك أنا؟!..»
هتف «شريف» بالعبارة، في صوتٍ مُختنقٍ ذاهلٍ، عندما تبدَّى له ذلك الكائن في حجرته..
لم يعد ظلًا كما كان..
بل صار إنسانًا كاملًا واضحًا..
إنسان هو صورة طِبق الأصل منه..
أو إنه هو..
اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يُحدِّق فيه، في حين قال الكائن في هدوءٍ:
- صدِّقني.. أنا أيضًا أشعر بالرهبة من هذا اللقاء.
غمغم «شريف»، ورأسه يتثاقل:
- مَن أنت؟!.. أو ما أنت؟!
ابتسم ذلك الشيء، وهو يقول:
- ستُدرك هذا بعد بعض الوقت، والآن دعني أخبرك ما لدي، قبل مضي الوقت.
غمغم بكل توتُّره:
- أي وقت؟!
أشار إليه ذلك الشيء بالصمت، وهو يقول:
- أرجوك.. لا يُمكنني الظهور في وضوحٍ، لأكثر من دقيقة واحدة.
اتسعت عينا «شريف» أكثر، وهو يغمغم:
- الظهور.
تحرَّك ذلك الشيء نحوه، فتراجع هو في فِراشه، وكاد ينكمش على نفسه في رعبٍ..
وخاصة بسبب ما حدث..
الكائن، الذي بدا له جسدًا متماسكًا، عبر المنضدة الصغيرة في منتصف الحجرة، كما لو كان شبحًا..
وشهق «شريف» مع رؤيته هذا..
أطلق شهقةَ فزعٍ، جعلت ذلك الشيء ينتبه إلى ما حدثَ، فتجاوز تلك المنضدة في سرعة، وهو يقول:
- اهدأ يا «شريف».. لو أنك عَلِمتَ من أنا، لن تفزع منِّي أبدًا.
غمغم «شريف» في رعبٍ:
- سألتك فلم تُجِب.
ابتسم ذلك الشيء وكأنه يحاول إزالة توتر «شريف» ورعبه، وهو يقول في هدوءٍ:
- أخشى أنك لن تستطيع استيعاب الأمر الآن، ولكن...
فجأةً، اختفى صوته..
كانت شفتاه تتحرَّكان، ولكن بلا صوتٍ..
ثم راحت ملامحه تتلاشى..
وتتلاشى..
وتتلاشى..

لم يعد كائنًا ذا ملامح..
لقد عاد ظلًا..
ظِلًا أحمر داكنًا..
وتضاعف تثاقل جفني «شريف»..
ودار رأسه في شدة..
وحاول أن يقول شيئًا..
أي شيء..
ولكنه سقط فجأة في غيبوبة عميقة.. عميقة للغاية..
و...
«استيقِظ يا «شريف»...»
انتزعه صوت البروفيسير «عمر» من غيبوبته العميقة فجأةً، فانتفض جسده في عنفٍ، قبل أن يفتح عينيه صارخًا:
- أين ذهبت؟!
بدا وكأنه قد فوجئ، عندما وجد نفسه داخل حجرة الاختبار، يجلس على المقعد المتصل بالشاشات والأسلاك، وأمامه ذلك القرص اللامع الذي توقَّف عن الدوران..
وفي حركة حادة، اعتدل في مجلسه هاتفًا:
- لقد ذهبَ.
ربَّت البروفيسور «عمر» على كتفه في حنانٍ أبويٍّ، قائلًا:
- نعلم يا صديقي.. أنت رويت لنا كل شيء.
هتف منزعجًا:
- أنا؟!
ابتسم البروفيسير «عمر» في حنانٍ، مجيبًا:
- نعم أنت.
ثم أشار إلى إحدى الشاشات، مستطردًا:
- لقد سجلنا كل شيء.
أطلق «شريف» زفرة قوية، وفرك عينيه في عصبية، وهو يقول:
- لا أريد الاستمرار في هذا.
تبادل الرجال الثلاثة نظرةً صامتةً، قبل أن يقول المقدِّم «مشهور»:
- أظنك تحتاج إلى مقابلة الجنرال «دوايت» أوَّلًا:
- التفت إليه «شريف» في حركة حادة:
- ومَن الجنرال «دوايت» هذا؟!
«تستطيع أن تقول إنني المشرف على كل هذا يا مستر «فؤاد»..»
هكذا أجابه الجنرال «دوايت»، عندما التقى به في مكتب بسيط، في الطابق الثاني من المبنى الدائري، فأجابه «شريف» في عصبية:
- أذكر أننا التقينا في (ناسا) يا جنرال.. أنت أحد رجال (أوليمبوس).. أليس كذلك؟!
ارتفع حاجبا «دوايت»، وهو يردِّد في دهشة:
- «أوليمبوس»؟!

هزَّ «شريف» كتفيه، مجيبًا في عصبية:
- هكذا نطلق على من يجلسون في الطابق العلوي، ويضعون السياسات العليا هناك.
لم يبتسم الجنرال حتى لقوله، وإنما غمغمَ:
- آه.
ثم اتخذ وقفةً عسكريَّةً صارمة، مستطردًا:
- هل تريد حقًا الانسحاب من هذا يا مستر «فؤاد»؟!
أجابه «شريف» في حدةٍ:
- نعم.. وفورًا.. وتذكَّر يا جنرال أنك لست تجلس في (أوليمبوس) الآن.. إننا في (مصر).. وطني الأم.
صمت «دوايت» لحظات، متطلعًا إليه، ثم قال في هدوءٍ صارمٍ:
- لم تكن هناك ضرورة لكل هذه العدائية يا مستر «فؤاد».
تراجع شريف في مقعده، وهو يقول في توترٍ:
- أتعني أنني حُرٌّ في الانسحاب.
تبادل «دوايت» نظرة مع المقدِّم «مشهور»، قبل أن يجيب في حزمٍ:
- كلا.
انتفض «شريف»، وهبَّ من مقعده صارخًا:
- ماذا تعني؟!.. أأنا أسير هنا؟!
انتقل الجنرال، من خلف المكتب إلى أمامه، وجلس على المقعد المواجه لـ «شريف» مباشرة، وهو يقول:
- ليس قبل أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله يا مستر «فؤاد».
تساءل في عصبية:
- أيُّ أمرٍ؟!
مال الجنرال نحوه، مجيبًا في حزمٍ، وبكلمات بطيئة:
- السر يا مستر «فؤاد».. أخطر أسرار الكون.
ومرة أخرى شهق «شريف» ..
شهق شهقة أكثر قوة ..
بكثير..

* * *

أدار الدكتور «أكرم» عينيه فيما حوله، داخل تلك القبة الزجاجية العاكسة، ثم هبط ببصره إلى كل تلك الآلات والأجهزة الرقمية الحديثة، التي تحيط بدائرة معدنية في منتصف الأرضية تمامًا، ثم التفت إلى الكولونيل «أورويل»، متسائلًا في حذرٍ:
- وماذا يفترض أن أفعل بكل هذا؟!
أجابه «أورويل» في شيءٍ من التعالي:
- أن تؤدي عملك.
صمت الدكتور «أكرم» لحظاتٍ، وهو يتطلَّع إليه، ثم مال نحوه، قائلًا في صرامة شديدة:
- ليس قبل أن تؤدي أنت واجبك.
احتقن وجه «أورويل» وهو يقول في حدَّةٍ:

- كيف تجرَّأ عليَّ..
قاطعته صيحة هادرة غاضبة من الدكتور «أكرم»:
- اصمت.
تراجع الكولونيل «أورويل» في دهشة مذعورة، ولكن الدكتور «أكرم» واصل في عنفٍ شديدٍ:
- تتحدَّث بكل الصلف والغطرسة، وكأنك تملك هذا البلد، على الرغم من أنك لا تساوي شيئًا هنا بدوننا.. إما أن تحترم وجودك على تراب وطني، أو ترحل غير مأسوفٍ عليك.. هل تفهم كلماتي هذه جيدًا، أم أترجمها لك إلى العربية.
اتسعت عينا الكولونيل «أورويل» عن آخرهما، وهو يحدِّق في وجه الدكتور «أكرم» غير مصدِّقٍ، فاعتدل الدكتور «أكرم»، وبدا وكأنه ضغطَ زِر مشاعره، فاستعاد هدوءه في لحظةٍ واحدةٍ، وهو يقول مستطردًا:
- والآن، ماذا ينبغي أن أفعل هنا؟!
ظلَّ «أورويل» لحظات صامتًا مشدوهًا، قبل أن يقول في بطءٍ متوترٍ:
- لم أقصد مضايقتك يا دكتور «أكرم».
تجاهل «أكرم» قوله هذا، وهو يكرِّر في حزمٍ:
- ماذا ينبغي أن أفعل هنا؟!
التقط «أورويل» نفسًا عميقًا، وحملت كلماته كل الاحترام، وهو يقول:
- إنه أمرٌ يتعلَّق بالطاقة الكهرومغناطيسية يا دكتور «أكرم».. هذه البقعة المعدنية المستديرة، نريد أن يكون مقدار الطاقة الكهرومغناطيسية المحيطة بها هو...
صمت لحظةً، ثم أضاف في توترٍ:
- صفر.
انعقد حاجبا الدكتور «أكرم»، وهو يغمغم:
- صفر؟!.. هل تعني أن تصبح منطقة منعدمة المجالات الكهرومغناطيسية تمامًا؟!
أومأ «أورويل» برأسه إيجابًا، مغمغمًا:
- بالضبط.
صمت الدكتور «أكرم» لحظاتٍ مفكرًا، ثم قال في بطءٍ:
- تعلم طبعًا أنه حتى الجاذبية الأرضية، تصنع مجالًا كهرومغناطيسيًا .
أومأ «أورويل» برأسه، دون أن يجيب، فعاد الدكتور «أكرم» إلى صمته وتفكيره بضع لحظات أخرى، ثم عاد يدير بصره في الآلات والأجهزة الحديثة من حوله، قبل أن يغمغم:
- لن يكون هذا سهلًا.
غمغم «أورويل» بدوره:
- ولكنك تستطيع القيام به.. أليس كذلك؟!
حكَّ الدكتور «أكرم» ذقنه براحته لحظة، ثم أجاب:
- نستطيع تحقيق هذا لحظيًا في المعمل، عن طريق معادلة الطاقة الكهرومغناطيسية للمكان، و...
قاطعه «أورويل» في لهفة:
- ولكنك تستطيع.
مرة ثالثة، ألقى الدكتور «أكرم» نظرة على ما حوله، ثم قال:
- أظنني أستطيع.

أطلق «أورويل» تنهيدة ارتياح، ولكن الدكتور «أكرم» استطرد في صرامة:
- ولكن بشرطٍ واحدٍ.
عاد «أورويل» يشعر بالقلق، وهو يتساءل في حذرٍ:
- أيُّ شرطٍ؟!
شدَّ الدكتور «أكرم» قامته، وتضاعفَتْ صرامته، وهو يجيب:
- أن ترحل من هنا..
وانتفض قلب الكولونيل «أورويل»..
بكل القوة..

* * *

«ما زلت أجهل حقًا ماذا أفعل هنا!!..»
قالتها الدكتورة «أشلي» في توتُّرٍ ملحوظٍ، وهي تلوِّح بيدها اليمنى في حركة عصبية، فهزَّت «إلهام» كتفيها، مغمغمةً:
- هذا ينطبق علينا جميعًا.
تنحنح الدكتور «خالد»، قائلًا:
- أعتقد أنهم قد أجروا ذلك الاتصال، الذي سيقلب مفاهيمنا عن الحياة رأسًا على عقب.
تطلَّعَت إليه «أشلي» في تساؤلٍ مُتوتِّرٍ، فأضاف «أنور»:
- الاتصال بكائنات من كواكب أخرى.
شهقت الدكتورة «أشلي» على الرغم منها، ومن أن هذا ما تبحث عنه طوال الوقت، من خلال دراستها وعملها، وهتفت في صوتٍ مبهورٍ:
- أتعتقد أن هذا قد حدثَ بالفعل؟!
قلب الدكتور «خالد» كفَّه، مجيبًا:
- ألديك تفسير آخر؟!.. لقد جمعونا من عدة تخصصات، في هذا المكان الذي لم نكن نتصوَّر حتى وجوده، والتعاون الشديد بين الأمن المصري والأمن الأمريكي، والذي يوحي بأن الأمر يتجاوز الحدود والمصالح القومية، إلى أهمية دولية، تتعلَّق بأمن الكوكب كله.
بدت أنفاسها المبهورة مسموعة، وهي تستمع إليه، وغمغمت:
- رباه!!.. لقد حلمت بهذا طيلة عمري، ولكنني لم أتصوَّر أن أحيا لأراهُ يحدث بالفعل.
أومأ الدكتور «خالد» برأسه موافقًا، وقال معقبًا:
- أنا تصوَّرت أن هذه حقيقة لا تحتاجُ إلى المناقشة والجدل.. من المستحيل أن نكون وحدنا في الكون.. ليس من المنطقي أو حتى من العلمي، أن يكون كل هذا الكون قد خُلِقَ من أجلنا فقط، ثم أنه لديَّ قناعة دينية تتعلَّق بهذا.
غمغمت «أشلي» في حذرٍ، حمل لمحة من الاستنكار:
- دينية؟!
أشار «أنور» بيده، وقال:
- في (مصر) لا يمكننا فصل الدين عن العلم.. ربما لا تميلون أنتم في (أمريكا) إلى هذا، ولكننا لا نستطيع إغفال عقولنا عنه هنا.
مطَّت الدكتورة «أشلي» شفتيها، مغمغمةً:
- هذا شأنكم.

بدت «إلهام» عدوانية مندفعة، وهي تقول في شبه تحدٍّ:
- نعم.. هذا شأننا.
رمقتها «أشلي» بنظرةٍ لا مبالية، ثم عادت تلتفت إلى الدكتور «خالد» متسائلة:
- وماذا يقول دينكم في هذا الشأن؟!
ابتسم الدكتور «خالد»، وهو يجيب:
- ليس من الضروري أن يقال هذا مباشرةً، ولكننا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى، الذي خلق عشرات ومئات الآلاف من أشكال الحياة على الأرض، بكافة صورها البرية والمائية والجوية، لن يعجز عزَّ وجلَّ عن خلق مئات الصور الحياتية العاقلة، على كواكب أخرى.
صمتت لحظات مفكرة، ثم قالت في بطءٍ حَذِرٍ:
- هذا لا يتعارض مع النظرة العلمية للأمر، فنحن نرى أنه حتى لو كان الاحتمال هو واحد لكل ألف مليار، فستوجد عشرات الاحتمالات لوجود حياة أخرى عاقلة، وسط مليارات المليارات من النجوم والمجرات.
قالت «إلهام»، بنفس اللهجة شبه المتحدية:
- ديننا يقول صراحة أيضًا، إن الله سبحانه وتعالى قد جعل من الماء كل شيء حيٍّ، وهذه أيضًا قاعدة علمية.. أليس كذلك؟!
بدت «أشلي» مبهورة، وهي تقول:
- هل قال دينكم هذا، منذ مئات السنين؟!
بدا «أنور» منتعشًا بانبهارها، وهو يتمتم:
- وأكثر.
تبادل معه الدكتور «خالد» نظرة حملت كل الارتياح، قبل أن يقول للدكتورة «أشلي»:
- هل تعلمين أن الله سبحانه وتعالى أقسم في القرآن بمواقع النجوم، وقال عزَّ وجلَّ: إنه قسَمٌ لو تعلمون عظيم، وهذا قبل نظرية أينشتين بمئات السنين، والتي أثبتت أن مواقع النجوم التي نراها، ليست هي مواقعها الحقيقية، وأنه لا يمكننا تحديد مواقعها الحقيقية، إلا أثناء كسوف كُلِّيٍ للشمس.
هتفت، وقد تضاعف انبهارها:
- حقًّا؟!
هتفت «إلهام» معترضة:
- دكتور «خالد».. لقد انحرفنا بحديثنا، من مناقشة علمية إلى دعوة دينية.
هتفت بها بالعربية، فلم تفهم «أشلي» ما تعنيه، مما جعلها تعقد حاجبيها في عصبية، فقال الدكتور «خالد» في هدوءٍ، وباللغة الإنجليزية:
- أنتِ على حقٍّ يا «إلهام».. لا بُدَّ وأن نعود إلى حديثنا الأصلي حتى نفهم ما يحدث هنا.
أشارت الدكتورة «أشلي» بيدها، قائلةً:
- لو أنهم قد أتموا هذا الاتصال بالفعل، فسيفسر هذا وجود عالمة فيزياء فلكية مثلي في الفريق.
هزَّ كتفيه، قائلًا:
- وربما يفسِّر وجودي وفريقي أيضًا، فهناك بعض النظريات، التي تعزي الغموض في عالمنا، والخاص بأشياء بلا تفسير، أو أماكن غير مفهومة، إلى أنَّ بعض المخلوقات الفضائية قد زارت الأرض، في أزمنة قديمة.
التقطت الدكتورة «أشلي» نفسًا عميقًا، وقالت:

- ربما يكون وجودنا تفسيرًا لكل هذا، ولكن ماذا عن ذلك المهندس المصري، والتجربة العجيبة التي مرَّ بها؟!

تبادل الكل نظرة صامتة، وإن انطلق السؤال ذاته في عقولهم جميعًا..

نعم.. ماذا عن «شريف» وتجربته؟!

ماذا؟!..

* * *

تطلَّع «شريف» في لهفة عصبية متوترة، إلى الجنرال «دوايت»، الذي جلس يتطلَّع إليه لحظات، بدوره، قبل أن يقول:

- مستر «فؤاد».. هل تعرف احتمال أن يتطابق الحمض النووي لشخص ما، تطابقًا تامًا، مع الحمض النووي لشخصٍ آخر؟!

حمل صوت «شريف» كل توتره وعصبيته، وهو يقول:

- ليس هذا مجال دراستي، ولكني وِفقًا لما أعرفه، فهذا مستحيل تمامًا.

وافقه الجنرال «دوايت» بإيماءة من رأسه، قائلًا:

- إنه بالفعل مستحيل تمامًا.

هتف «شريف»:

- ولكن ما صلة هذا بي؟!

تراجع الجنرال «دوايت» في مقعده، وأدار بصره إلى المقدِّم «مشهور»، الذي ظلَّ صامتًا منذ البداية، والذي تنحنح قبل أن يقول:

- أستاذ «شريف».. ما سأخبرك به يُعَدّ من أعظم أسرار الأمن العالمي في هذه اللحظة، وأصدقك القول إنني لم أستطع أنا نفسي تصديقه في البداية، لولا أن أحضر الأمريكيون ما يثبت أنه حقيقة.

تزايدت عصبية «شريف»، وهو يقول:

- الأمن العالمي؟!.. سمعت كثيرًا عن مصطلح الأمن القومي، أما الأمن العالمي..

هزَّ كتفيه في عصبية، وكأنه بهذا يكمل عبارته، فقال «مشهور»:

- ربما هو مصطلح جديد، ولكن الظرف الحالي حتَّم وجوده؛ إن الأمر أكبر من أن يتعلَّق بأمن قوميٍّ لبلدٍ واحدٍ هذه المرة.

فقدَ «شريف» أعصابه وهو يهتف:

- أهذا ما ستشرحونه لي، أم إنه مزيد من الغموض؟!

أشار الجنرال «دوايت» للمقدِّم «مشهور» بالصمت، وهو يقول:

- مستر «فؤاد».. هل تؤمن بوجود مخلوقات عاقلة أخرى غيرنا في الكون؟!

هتف «شريف»:

- لن أجيب هذا.. أنا هنا بحثًا عن الأجوبة، وليس لطرح أية أجوبة.

تبادل «دوايت» نظرة أخرى مع «مشهور»، ثم قال:

- فليكن يا مستر «فؤاد».. الواقع أن وجود مخلوقات عاقلة أخرى في الكون لم يكن مجرَّد خيال علمي، أو نظريات تطرح في مطبوعات علمية.. فنحن، ومنذ عام ١٩٤٧م، ونحن نعلم علم اليقين إنه هناك مخلوقات عاقلة أخرى في الكون.

تراجع «شريف» في بطءٍ على مقعده، وهو يغمغم مبهورًا:

- حادثة (روزويل)؟!(10)

أشار الجنرال بيده، وكأنما هذا خارج المناقشة، وتابع في شيءٍ من الصرامة:
- ومنذ أسابيع قليلة، حدث لقاء حيٌّ مع كائن، نضع في اعتبارنا أنه قد ينتمي إلى عالم آخر.
غمغم «شريف» في توتر:
- قد؟!
أومأ الجنرال برأسه إيجابًا، وتابع:
- قد هذه تعود إلى نتائج العيّنة الجينية، التي أعطاها لنا ذلك الكائن طواعية، والتي تحوي أربعة وعشرين زوجًا من الكروموسومات، وليس ثلاثة وعشرين مثل سائر الكائنات الأرضية.
تلاحقت أنفاس «شريف»، وهو يقول:
- التقيتم به حقًّا، وترك لكم عينة من جيناته!!
مطَّ الجنرال شفتيه، وتابع دون أن يتوَّقف عند تعليق «شريف»:
- الذي أذهلنا بحقٍّ، هو أنه عند استبعاد الزوج الإضافي من الكروموسومات، في ضفيرته الجينية، وجدنا لدينا تطابقًا مذهلًا، بين الثلاثة والعشرين زوجًا المتبقية، والبصمة الجينية لبشريٍّ على كوكبنا، بنسبة مائة في المائة.
ثم مال نحوه في حركة مفاجئة، جعلته يتراجع برأسه متفاديًا، والجنرال يضيف بلهجةٍ صادمةٍ:
- وهذا البشري هو أنت.. أنت يا مستر «فؤاد».
وكانت صدمة لـ «شريف»..
صدمة العمر.

* * *

الفصل الثامن

بكل اللهفة، اختطفت «درو»، زوجة «شريف» الحسناء هاتفها المحمول، فور انطلاق رنينه، وضغطت زر الاتصال وهي تهتف:
- حبيبي!!
أتاها صوت «شريف» حنونًا دافئًا، وهو يقول:
- أوحشتني.
اختلجت شفتاها، وهي تجيب:
- أموت شوقًا إليك.
سالت دموعها من عينيها، دون أن تشعر، وهو يقول:
- قريبًا يا حبيبتي.. سنلتقي قريبًا.
بكت في حرارة، هاتفة:
- عد يا «شريف».. عد.. أرجوك.
شعر بغصة في حلقه مع بكائها، وبدا صوته مختنقًا وهو يقول:
- مهمتي لم تنتهِ بعد يا حبيبتي.
هتفت:
- أية مهمة تلك؟!.. مندوب الحكومة الأمريكية زارني، وسلمني شيكًا بقيمة ثلاثة ملايين دولار.. لماذا تدفع الحكومة مثل هذا المبلغ، لو لم تكن المهمة قاتلة؟!.. لماذا؟!
أغلق عينيه في قوة، وتضاعفَ شعوره بالغصة في حلقه، مما أعجزه عن الكلام بضع ثوانٍ..
وعندما تكلَّم، كان صوته أكثر اختناقًا في حلقه، وهو يغمغم:
- حبيبتي.. هذا المبلغ يكفي لسدِّ رهن المنزل، وربما شراء منزل أفضل في ولاية أخرى.. ويكفي لتأمين مستقبلك، و...
قاطعته صارخة باكية:
- فليذهب المال والمنزل وحتى المستقبل إلى الجحيم.. أريدك أنت يا «شريف».. أنت.
كانت تصرخ على نحوٍ مُتواصلٍ، حتى إنه اضطر إلى الصراخ:
- حبيبتي.. اسمعيني.. اسمعيني أرجوكِ.
سمع بكاءها ونحيبها على الطرف الآخر، فخفض صوته، مستطردًا:
- حبيبتي.. هل تثقين بي؟!.. هل تثقين بي يا حبيبتي؟!
كرَّرها أكثر من مرة، حتى سمعها تغمغم من وسط نحيبها:
- بالطبع يا حبيبي.. بالطبع.
ازدرد لعابه في صعوبةٍ، قبل أن يقول:
- المبلغ ليس لأن المهمة قاتلة.
بكت في مرارة، وهي تقول:
- لماذا تدفعه الحكومة إذًا؟!
أجابها في سرعة:
- لأن هذا كان شرطي لقبول المهمة.
هتفت:

- أيَّة مهمة؟!
كان صادقًا تمامًا، وهو يجيبها:
- مهمة علمية خالصة يا حبيبتي، تصادف أنني الوحيد، من دون أهل الأرض جميعًا، القادر على القيام بها.. أقسم لك إن ما أقوله حقيقة.. حقيقة خالصة.
لسببٍ ما، اشتمت الصدق في صوته ولهجته، وتهدُّج كلماته، فخفت نحيبها وهي تغمغم:
- هل تقسم؟!
هتف على الفور:
- أقسم بحبنا.. وبابنتنا القادمة.
غمغمت:
- «سلمى».
ابتسم ابتسامة شاحبة، وهو يغمغم:
- وأم «سلمى».
صمتت لحظات، سمع خلالها نحيبها، قبل أن تغمغم في حرارة:
- عدني أن تعود إليَّ سالمًا.
ازدرد لعابه في صعوبةٍ، وهو يقول:
- أعدك.
أنهى المحادثة، وأغلق عينيه في قوة وكأنه يقاوم انفعالًا جارفًا في أعماقه، فتراجع الجنرال «دوايت» في مقعده، وهو يسأله:
- هل تشعر الآن بالارتياح؟!
أومأ «شريف» برأسه في بطءٍ، مجيبًا:
- قليلًا.
شعر المقدِّم «مشهور» بالتعاطف معه، وهو يقول في حنانٍ:
- لقد اتخذت القرار الصحيح.
رفع «شريف» عينيه إليه، وهو يقول في أسى:
- ولكنني ما زلت أجهل دوري في هذه اللعبة.
كان من الواضح أن «دوايت» يجيد العربية؛ فقد اعتدل في اهتمامٍ وهو يقول في حزمٍ:
- ليس لعبة يا مستر «فؤاد»، بل هي أسمى مهمة يقوم بها بَشري من أجل كوكبه وحضارته كلها.
أدار «شريف» بصره إليه، قائلًا:
- ما زلت لم أحصل على الجواب بعد.
بدا المقدِّم «مشهور» شديد الاهتمام بمعرفة الجواب مثله، فنقل الجنرال «دوايت» بصره بينهما، وصمت لحظات، قبل أن يقول في حزمٍ:
- فليكن.. سأخبرك يا مستر «فؤاد».
ومع كلمات «دوايت» التالية، راحت عينا «شريف» تتسعان عن آخرهما..
فالمطلوب منه لم يكن بالفعل مهمة عادية..
بل مهمة صادمة..
كألف ألف صاعقة..
أو أكثر..

* * *

شعر رائد الفضاء «ميلروي» بتوتر ما بعده توتر، وهو يقف أمام مدير المهام الفضائية في (ناسا)، قائلًا:

- سيِّدي.. أرجو اختيار رائد فضاء آخر لهذه المهمة.

قال مدير المهام في غضبٍ:

- هل ترفض المهمة يا (سي- ١٧)؟!

حمل صوت «ميلوري» كل توتره وهو يجيب:

- لن أحتمل العودة إلى هناك يا سيِّدي.

انعقد حاجبا مدير المهام في غضبٍ، وجذب ورقة، ألقاها مع قلم أمام «ميلوري» هاتفًا:

- وقِّع هذه إذًا أيها الرائد.

توتر «ميلروي» أكثر وهو يقول:

- وما هذه يا سيِّدي؟!

صاح الرجل في وجهه:

- استقالتك.

تراجع «ميلروي» مصدومًا، وهاتفًا:

- إلى هذا الحد؟!

بذل مدير المهام جهدًا خرافيًا للسيطرة على أعصابه، وهو يقول:

- الأمر شديد الأهمية والخطورة أيها الرائد، وأنت رائد الفضاء الوحيد هنا الذي يدرك خطورة ما نواجهه.. كنتم ثلاثة رواد فضاء في المهمة الأخيرة، ولكن ذلك الشيء اختارك أنت ليتم اتصاله معك.. قد يكون هذا من قبيل المصادفة، أو قد يكون أمرًا مقصودًا مدروسًا.. والورقة التي سلمك إياها، تحوي خريطة دقيقة، لموقع قريب من موقع الاتصال، ولا يمكننا المخاطرة بإرسال رائد فضاء آخر، يشير الخبراء إلى احتمال فشل المهمة كلها، لو ذهب.

وعلى الرغم منه، ارتجف صوتُ «ميلروي»، وهو يقول:

- هل تعني أنني وحدي أستطيع بلوغ ذلك المكان يا سيِّدي؟!

أومأ مدير المهام برأسه إيجابًا، وقال :

- هذا ما يعتقده الخبراء.

كان «ميلروي» يشعر بتوترٍ شديدٍ في أعماقه، إلا أن إحساسه بواجبه جعله يشد قامته في وقفة ثابتة وهو يقول:

- في هذه الحالة أقبل المهمة يا سيِّدي.

أطلق مدير المهام تنهيدة ارتياح، ونهض من مقعده، ومدَّ يده يصافح «ميلروي»، قائلًا:

- صدقني أيها الرائد، لقد اتخذت القرار الحكيم، ويومًا ما، سيلمع اسمك في تاريخ هذا الكوكب، وربما بأكثر مما لمع اسم «يوري جاجارين»(11)، و «نيل أرمسترونج»(12)

وشدَّ على يده بكل القوة..

وكل الاحترام..

* * *

في قاعة واحدة كبيرة، جلس الدكتور «خالد» يراجع مع مساعده «أنور» وطالبته «إلهام» بعض المخطوطات القديمة، في حين راحت الدكتورة «أشلي» تراجع بعض الخرائط الفضائية الفلكية،

على شاشة هائلة، تحتل منتصف جدار كامل..
كانت تعمل في صمتٍ تامٍّ، دفع الدكتور «خالد» إلى الهمس، وهو يقول:
- رباه!.. يا لها من مخطوطاتٍ نادرة.. لو حصلنا عليها منذ عدة أعوام، لقفزت أبحاثنا ألف خطوة على الأقل.
غمغمت «إلهام»:
- هذا لو كنا نعلم بوجودها.
ابتسم «أنور» وهو يتطلَّع إليها، ثم همس بدوره:
- دومًا ما تخفي الحكومات مثل هذه المخطوطات النادرة.
ارتفع صوت «إلهام» وهي تقول في حدةٍ:
- ليس هذا من حقها.
التفتت إليها «أشلي» في استنكارٍ، فأشار إليها الدكتور «خالد» برأسه معتذرًا، وهمس لـ «إلهام»:
- حاولي تخفيف عصبيتك هذه.
غمغمت في توترٍ:
- كلما حاولت، استفزتني أفعالهم.
أشار «أنور» بسبَّابته، هامسًا:
- الواقع أن ما تحويه تلك المخطوطات بالغ الخطورة.. المفترض أن يعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي، وعلى الرغم من هذا، ففيها أوصاف لأشياء لم يتم ابتكارها قبل القرن التاسع عشر.
قال الدكتور «خالد» في خفوتٍ:
- هذا ينطبق على المخطوطة التي بين يدي أيضًا.. اسمعا ما كتبه هذا الراهب.
تطلَّع إليه الاثنان في اهتمامٍ شديدٍ، فقرأ في خفوتٍ كلمات ذلك الراهب القديم:
«أشباح الذين كانوا جابت الهيكل.. كانت تحاول تحذيرنا من أمرٍ ما، ولكن كيف يمكنك أن تتواصل مع أشباح هي طيف أحمر، عاجز عن الكلام ..»
ارتفع حاجبا «إلهام» واتسعت عيناها وهي تقول:
- طيف أحمر.. وكأنه يصف ما يحدث هنا.
أومأ «خالد» برأسه مؤيِّدًا، قبل أن يقول:
- انظروا ما يقوله في فقرة تالية: «وسط الساحة الكبيرة، رأينا الدائرة الحمراء تنبت، وأشباح الذين كانوا تأتي.. رحنا كلنا ندندن بدعاء ديني، ولكن أشباح الذين كانوا لم تذهب.. فقط راحت ترسم شيئًا بأيديها، وشعرنا كلنا بقشعريرة تسري في أجسادنا، ثم تلاشت الظلال.. ذهبت مع الدائرة الحمراء كما جاءت..»
غمغم «أنور» مبهورًا:
- قشعريرة في أجسادهم.
أشار إليه الدكتور «خالد» بيده، قائلًا:
- المجالات الكهرومغناطيسية يمكن أن تفعل هذا.
قالت «إلهام» متوترة:
- وتلك الإشارات التي تحدَّث عنها الراهب، هل تعتقدان أنها كانت محاولة لتوصيل رسالة ما.
أجاب الدكتور «خالد» على الفور:

- أنا واثق في هذا.
تساءل «أنور» في اهتمامٍ:
- وماذا عن وصفهم بـ «الّذين كانوا»؟!
غمغمت «إلهام»:
- الأشباح هي أطياف لموتى كانوا يومًا من الأحياء.
تساءلَ:
- أتعتقدين أن هذا ما كان يعنيه؟!
قلبت كفيها، قائلة في توترٍ:
- وماذا يمكن أن يعني سوى هذا.
أشار إليهما الدكتور «خالد» بالكف عن المناقشة، وهو يقول:
- بغض النظر عن المقصود.. من الواضح أن ما يحدث الآن هو تكرار لما وصفته المخطوطات، في القرن الثالث الميلادي.
تساءلت «إلهام»:
- هل تعتقد يا دكتور «خالد» أن هذا يتفق مع نظرية وصول سكان الفضاء إلى هنا، في الأزمنة الغابرة؟!
هزَّ كتفيه، قائلًا:
- ستظل مجرَّد نظرية، حتى يمكن إثباتها أو نفيها.
«لا يوجد أيُّ جديد..»
تطلعت الدكتورة «أشلي» بحركة حادة، فأسرع الدكتور «خالد» يسألها، وهو يشير إلى «إلهام» بالتراجع:
- ماذا عنيت بأنه لا يوجد جديد يا دكتورة «أشلي»؟!
أشارت بيدها، مجيبةً:
- لقد أرسلوا كل ما سجَّله تليسكوب (هبل)، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكلها تبدو لي عادية، لا توجد إشارة لأي تغيير.
سألها الدكتور «خالد»:
- وماذا كان من الممكن أن يتغيَّر، في خرائط فلكية؟!
حاولت أن تبتسم في عصبيةٍ، وهي تجيب:
- لم يخبروني.
سألتها «إلهام» في استنكار:
- عم كنت تبحثين إذًا؟!
أجابتها «أشلي» في تحدٍّ:
- عن إبرة في كومة من القش.
تراجعت «إلهام» مستفزة، فتابعت «أشلي»:
- ظِلٌّ دقيقٌ، يضاف إلى كوكبٍ ما، أو أحد أقمار (زحل) مثلًا، أو كويكب في غير موضعه.. أو نيزك يتخذ مسارًا غير تقليدي.. أي شيء يمكن أن يوحي بحركة مركبة فضائية، من عالم آخر.
التفتت «إلهام» بحركة حادة إلى «أنور»، وتبادل كلاهكما نظرة مصدومةً قبل أن تهتف «إلهام»:
- نظرية سكان الفضاء إذًا.

اعتدلت «أشلي»، وهي تقول في حماسٍ علميٍّ:
- إنها واحدة من النظريات التي نرى لها مرورًا كبيرًا في الأوساط العلمية.. ظواهر عديدة في هذا العالم، توحي بأن العصور القديمة قد شهدت أمورًا تفوق قدراتها، أو الحضارات التي كانت قد شهدت أمورًا تفوق قدراتها، أو الحضارات التي كانت سائدة عليها في حينها.. التفسير الوحيد هو أن حضارة عاقلة، من عالم آخر، وجدت سبيلها إلى الأرض، في تلك الأزمنة الغابرة، وتركت عليها آثارًا كبيرة([13]).
اندفع «أنور» يقول:
- هذا صحيح، حتى إن بعض العلماء يقول إن المسلات الفرعونية، ليست سوى محاولة لنسخ الصواريخ، في هيئة حجرية([14])
مطَّت الدكتورة «أشلي» شفتيها، وقالت:
- تُبالِغون كثيرًا في عظمة حضارتكم.
قالت «إلهام» في تحدٍّ عصبيٍّ:
- على الأقل لدينا حضارة.
اعتدلت «أشلي» في حركة حادة، فاندفع الدكتور «خالد» يقول، محاولًا تغيير دفة الحديث:
- هل تعلمون أن الكولونيل «أورويل» قد غادر القاعدة بلا رجعة؟!
مطَّت «أشلي» شفتيها، ولوَّحت بيدها، قائلة:
- كان هذا شرط الدكتور «أكرم» ليؤدي عمله.
اعتدل الدكتور «خالد»، يسألها في اهتمامٍ:
- وما هو عمله بالضبط؟!
وصمتت الدكتورة «أشلي»، على الرغم من كل العيون المتعلقة بها، في انتظار الجواب..
فالواقع أنه لم يكن لديها جواب..
على الإطلاق..

* * *

راجع البروفيسير «عمر» كل أجهزته وشاشاته، وتيقن من أنها كلها تعمل في كفاءة، قبل أن يدير بصره إلى تلك الدائرة المعدنية، في منتصف القاعدة الزجاجية، قائلاً:
- أنا على أهبة الاستعداد.
غمغم الدكتور «أكرم»، وهو يضبط آخر أجهزته:
- وأنا أيضًا.
ثم التفت إلى المقدِّم «مشهور»، مردفًا:
- يمكنك الاتصال بالجنرال الآن.
عقد «مشهور» كفيه خلف ظهره، وهو يقول في حزمٍ:
- لقد فعلت.. إنه في طريقه مع المهندس «شريف» إلى هنا.
بدت الدهشة على الرجلين، وتساءل البروفيسير «عمر»:
- «شريف»!.. وما صلة «شريف» بهذا؟
صمت المقدِّم «مشهور» لحظةً، قبل أن يجيب في حزمٍ:
- إنه هو المشروع.. هل نسيتما؟!

تبادل الرجلان نظرة متوترة متسائلة صامتة، استمرت حتى دلف الجنرال «دوايت» مع «شريف» إلى القاعة، وعلى عكس توتر الأخير، بدا الأوَّل حازمًا صارمًا، وهو يقول:
- هل الكل مستعد ؟!
التفت إليه الجميع، وقال الـمُقدِّم «مشهور»:
- بالتأكيد..
أشار الجنرال إلى «شريف»، قائلًا:
- تفضل يا مستر «فؤاد».
تردَّد «شريف» لحظات، وبدا من امتقاع وجهه أنه يشعر بتوترٍ شديدٍ، ثم اتجه في خطواتٍ مترددة متعثرة إلى حيث تلك الدائرة المعدنية، ولكن المقدِّم «مشهور» اعترض طريقه، وأمسك ذراعه وهو يقول في حزمٍ:
- مهلًا يا أستاذ «شريف».
نظر إليه الجنرال في استنكارٍ، وهتف في غضبٍ:
- ماذا تفعل أيها المقدم؟!
هتف به «مشهور»:
- بل ماذا تفعل أنت يا جنرال؟!.. أليس من المفترض أن تخبرنا بما تنتويه قبل أن تقدم عليه.
قال الجنرال في عصبيةٍ صارمةٍ:
- مستر «فؤاد» تطوَّع للقيام بالمهمة.
هتف الدكتور «أكرم»:
- ولكننا لم نفعل.. ببساطةٍ لأننا نجهَل ماهية هذه المهمة.
وقال البروفيسير «عمر» في حدةٍ:
- لست دمى تحرِّكها بخيوطك يا جنرال.
بدا الجنرال أكثر عصبية، وهو يقول:
- على كل منكم أن يؤدي عمله فحسب.. لقد خضعت لشرطك يا دكتور «أكرم»، وأبعدت الكولونيل «أورويل» عن هنا، وعليك أن تفي بدورك، وتضع تلك الدائرة في حالة الصفر الكهرومغناطيسي، وأنت يا بروفيسير «عمر»، عليك أن تسجِّل ما سيحدث لحظةً بلحظةٍ.
قال المقدِّم «مشهور» في صرامة:
- الأستاذ «شريف» مواطن مصري، ولن نسمح بـ...
قاطعهم «شريف» في حدة:
- توقفوا عن فرض وصايتكم عليَّ.
صدم قوله الكل، وابتسم الجنرال في ظفرٍ، و «شريف» يتابع في غضبٍ وحِدَّة:
- الجنرال «دوايت» شرح لي طبيعة المهمة، وأنا قبلت القيام بها طواعية، ولا أحد يملك فرض رأيه الشخصي على قراري.
ساد صمت ثقيل لحظات، قبل أن يقول الدكتور «أكرم» في توترٍ:
- هل تعرف تأثير وجودك، في وسطٍ يخلو تمامًا من أيَّة طاقة كهرومغناطيسية ؟!
وعلى الرغم من توتر «شريف»، أجاب في حزمٍ:
- أنا مستعد لكل الاحتمالات.
تبادل الكل نظرة شديدة التوتر، فشدَّ الجنرال قامته، وقال في صرامة:

- هل نبدأ عملنا أيها السادة؟!
تبادل الرجال نظرة أخرى، ثم أفلت المقدِّم «مشهور» ذراع «شريف»، وتراجع خطوتين، في حين قال الدكتور «أكرم» في خفوتٍ:
- فليكن.. قف وسط تلك الدائرة المعدنية يا أستاذ «شريف».
ازدرد «شريف» لعابه في توترٍ، ودفع قدميه دفعًا، حتى بلغ منتصف الدائرة المعدنية، فأشار الدكتور «أكرم» إلى طاقم الفنيين، قائلًا:
- الآن.
بدأت الأجهزة عملها لمعادلة الطاقة الكهرومغناطيسية، وشعر «شريف» في البداية بطنينٍ عجيبٍ في أذنيه، ثم لم يلبث أن شعر بخدر يسري في أوصاله، حتى صار من العسير عليه أن يقف على قدميه، فغمغم:
- هل يمكنني الجلوس؟!
ودون انتظار للجواب، جلس وسط تلك الدائرة المعدنية، التي راحت مؤشرات أجهزة الدكتور «أكرم» تشير إلى انخفاض الطاقة الكهرومغناطيسية بها رويدًا رويدًا..
وتضاعف الخدر في جسد «شريف»، فترك جسده يسترخي وسط الدائرة المعدنية، وشعر بالمشهد من حوله يصطبغ بلونٍ أحمرَ باهتٍ، سجلته أجهزة البروفيسير «عمر»، فغمغم مبهورًا:
- يا إلهي!!.. يا إلهي!!
كانت هناك دائرة حمراء، تتكوَّن حول «شريف» بالفعل، والطاقة الكهرومغناطيسية تنخفض وسط الدائرة المعدنية..
وتنخفض..
وتنخفض..
وكلما انخفضت، بدت الدائرة الحمراء أوضح وأوضح..
وازدادَ تراخي جسد «شريف»، وبدا له أنه يسقط في غيبوبة ناعمة..
أما الدكتور «أكرم» فقد راح قلبه يدق في عنفٍ، ومؤشر الطاقة الكهرومغناطيسية ينخفض في سرعة..
ثمَّ، وبقفزة واحدة، أشار المؤشر إلى الصفر..
ودوت في القاعة الزجاجية فرقعة مكتومة، كادت تحطم قبتها..
وبعدها اتسعت عيون الكل في ذهولٍ مصدومٍ..
فبعد ثانية واحدة، اختفت تلك الدائرة الحمراء..
واختفى معها «شريف»..
تمامًا.

* * *

الفصل التاسع

حاول رائد الفضاء «ميلروي» عبثًا، ازدرد لعابه عبر حلقه الجاف، وهو يقف مرةً أخرى على سطح القمر، في نفس الموضع، الذي التقى فيه ذلك الكائن شبه البشري من قبل..

وجوده في نفس المكان كان يبعث في جسده قشعريرةً، يعجز عن كبح جماحها، مع استعادته- مرغمًا- لتلك الذكرى..

كانت أعصابه مشدودة للغاية، حتى إن جسده كله قد انتفض، عندما سمع مسئول (ناسا)، عبر جهاز الاتصال في خوذته، يقول:

- حدِّد موقعك يا (سي- ١٧).

كان يعلم أن جهاز تحديد الموقع في خوذته ينقل موقعه في دقة، وعلى الرغم من هذا فقد أجاب في توترٍ:

- أنا في موقع الاتصال (أ).

قال مسئول (ناسا)، محاولًا أن يخفي توتره المماثل:

- المفترض، وفقًا للخارطة، أن تكون على مسافة مائتي متر غربًا، في الموقع المنشود.

تحرَّك «ميلروي» في بطءٍ، في الاتجاه المشار إليه وهو يقول:

- أتجه إليه بالفعل.. أصِل بعد دقيقة وعشرين ثانية.

أنهى الاتصال وراح يتقافز تلك القفزات القصيرة التي تماثل السير على سطح القمر، حتى أضيء مصباحٌ أخضَرُ في خوذته، معلنًا بلوغه الهدف، فتوقَّف يتلفَّت حوله في حيرة متوترة، قبل أن يقول:

- المفترض الآن أنني في نقطة الهدف بالضبط، ولكن كل شيء من حولي معتاد، ولا يوجد ما يثير الانتباه.

أتاه صوت مسئول (ناسا)، في توتر لم يستطع إخفاءه:

- وفقًا للخارطة، فالهدف أسفلك، وليس حولك.

مع قوله، شعر «ميلروي» بالأرض تهتز اهتزازات خفيفة أسفله، فهتف بكل توتره:

- رباه!!.. إنه بالفعل...

انحبست باقي الكلمات في حلقه، عندما هبطت به تلك البقعة التي يقف فوقها، على نحوٍ مباغتٍ، وسط ما بدا أشبه بأسطوانة معدنية نصف لامعة..

وعلى الرغم منه، راح يلهث في انفعالٍ شديدٍ وهو يهبط..

ويهبط..

ويهبط..

ثم، وبلا مقدمات، توقَّف جسده عن الهبوط على نحو كاد يختل معه توازنه..

وشعر بجسده ينسحب أفقيًا، كما لو أنه يدفع فوق قضبان حديدية ناعمة..

وفي سرعة، ارتفعت تلك الأسطوانة المعدنية نصف اللامعة لتسد الفتحة التي هبط منها..

وعلى الفور، أضيء المكان كله، كما لو أن الضوء ينبعث من جدرانه كلها..

واتسعت عينا «ميلروي» عن آخرهما..

فما رآه من حوله كان مُذهِلًا..

بكل المقاييس..

* * *

«لا فائدة!!..»

غمغم الدكتور «أكرم» بالعبارة وهو يفرك عينيه في إرهاقٍ شديدٍ، فامتقع وجه «إلهام»، وهي تقول في فزعٍ:

- ما الذي يعنيه هذا؟! هل فقدنا المهندس «شريف»؟!

عضَّ المقدِّم «مشهور» شفته السفلي، وهو يغمغم في مرارةٍ:

- لقد حاولت منع حدوث هذا.

أشار الدكتور «أكرم» بيده، مغمغمًا في ندمٍ:

- مَن كان يتصوَّر ما حدثَ؟!.. إنه أمرٌ يتعارض مع كل القواعد العلمية المعروفة.

كان البروفيسير «عمر» يعمل في جهد على جهازه الراصد، وهو يغمغم في عصبية:

- أتفق معك في هذا.

بدا الجنرال «دوايت» شديد التوتر، وهو يقول:

- سأعمل على استدعاء طاقم من أفضل علمائنا، و...

قاطعه المقدِّم «مشهور» في صرامة:

- كلا.

انتفض «دوايت»، وهو يهتف في حدة:

- هل نسيت من تخاطب يا هذا؟!

أجابه «مشهور» بكل الصرامة:

- يبدو أنك أنت من نسيَ أين يضع قدميه يا جنرال.. إنك هنا على أرض مصرية.. السُّلطة العليا فيها للمصريين وحدهم، فمع احترامي لرتبتك، فأنت هنا ضيف مرحَّب به فحسب.

احتقن وجه الجنرال، وهو يقول محتدًا:

- كيف تجرؤ أيها الـ...

قاطعه المقدِّم «مشهور» في صرامة قاسية:

- كيف جرؤت أنت على التضحية بمواطن مصري يا جنرال؟!

صمت الجنرال «دوايت» لحظاتٍ، ثم لم يلبث أن شدَّ قامته، وهو يقول في صرامة عسكرية:

- هل استشرت رؤساءك فيما تفعل أيها المقدِّم؟!

صدمه «مشهور» بإجابته الصارمة:

- وأنا أتحدَّث بلسانهم يا جنرال.

عاد الجنرال «دوايت» إلى صمته بضع لحظات، ثم قال في بطءٍ:

- لم يكن من الممكن أن يعمل مستر «فؤاد» في (ناسا)، دون أن يحصل على الجنسية الأمريكية.

أطلَّ تساؤل متوتر من عيني المقدِّم «مشهور»، على نحوٍ جعل الجنرال يقول في صلابة ظافرة:

- وهذا يعني أنه، ومن الناحية الرسمية، مواطن أمريكي، من حقنا السعي لصالحه تحت أي علم يكون.

ران على المكان صمتٌ رهيبٌ، وانتقلت العيون كلها عن «دوايت» إلى «مشهور»، في انتظار ما سيسفر عنه الموقف..

ثم قطع المقدِّم «مشهور» ذلك الصمت، وهو يقول في صرامة:

- يمكنك أن تتقدَّم بشكوى لوزارة الخارجية يا جنرال.

تراجع الجنرال في دهشةٍ مصدومةٍ، في حين شدَّ المقدِّم «مشهور» قامته هذه المرة، ورفع صوته وهو يقول في حزمٍ:
- هذا المكان تحت قيادتي أيها السادة، من هذه اللحظة، قامته هذه المرة، ورفع صوته وهو يقول في حزمٍ:
- هذا المكان تحت قيادتي أيها السادة، من هذه اللحظة، وحتى إشعار آخر.
احتقن وجه الجنرال «دوايت» في شدة، وهو يغمغم:
- هكذا؟!
تابع «مشهور»، وكأنه لم يسمع تعليقه:
- سيجتمع الفريق كله خلال ساعة واحدة، وعلى الكل بعد خمسة أيام من البحث غير الناجح أن نضع برنامجًا لإيجاد وسيلة علمية لمعرفة كيف ولماذا وأين اختفى المهندس «شريف فؤاد».
قالها بالإنجليزية، فغمغمت «أشلي» في استنكارٍ:
- سيقود الفريق مصري؟!
التفت إليها الكل بنظرة أكثر استنكارًا، فانكمشت على نفسها، وغمغمت في توترٍ:
- لم أعمل تحت قيادة مصري من قبل.
قالت «إلهام» بلهجتها المتحدية:
- ستشعرين بالمتعة لهذا.
أشار «مشهور» بيده في صرامة، قائلًا:
- كفى.. لا معارك جانبية.. الهدف الوحيد الذي سيسعى إليه الكل هو معرفة أين ذهب المهندس «شريف».
وخيَّم الصمت على الجميع..
فهذا هو السؤال الأهم بالفعل..
أين اختفى المهندس «شريف»؟!
أين؟!

* * *

امتقع وجه صاحب الصوت الخشن، وهو ينهي اتصاله مع مسئول (ناسا)، والتفت إلى الجالسين، قائلًا في صوت حمل كل توتره:
- لقد انقطع الاتصال مع (سي-١٧) على القمر.
غمغم أحدهم مبهوتًا:
- انقطع؟!
شحبت الوجوه كلها، والكل يتبادلون نظرات غاية في التوتر، ثم غمغم آخر في عصبيةٍ:
- وماذا عن رائديِّ الفضاء الآخرين؟!
أجابه صاحب الصوت الخشن بنفس التوتر:
- الاتصال معهما مستمر، ولقد مشَّطا عن المنطقة كلها، دون أن يعثرا على أدنى أثرٍ له.
تساءل ثالثٌ في خفوتٍ:
- وماذا عن هدف الخارطة؟!
أشار صاحب الصوت الخشن بذراعيه، مجيبًا:

- منطقة عادية، بالقرب من بحر العواصف.. لا يُميِّزها شيءٌ.. (سي-١٧) تبخَّر عندها تمامًا.. تلاشى دون أن يترك خلفه ما يمكن أن يقود إليه.
عادوا يتبادلون نظرة مفعمة بالخوف والتوتر، قبل أن يسأل الأوَّل في قلقٍ:
- الناس لا تتلاشى هكذا، دون أن تترك خلفها ما يشير إلى تواجدها على الأقل.
غمغم صاحب الصوت الخشن:
- ما عدا (سي-١٧).. كانت آثار أقدامه عند نقطة، تلاشى بعدها تمامًا، كما لو أن أشعة مجهولة قد سحبته إلى أعلى.
قال آخر في توترٍ:
- أو جذبته إلى أسفل.
ازداد امتقاع وجه صاحب الصوت الخشن، وهو يغمغم مكرِّرًا:
- أو جذبته إلى أسفل.. نعم.. ولمَ لا؟!
ثم عاد يختطف سمَّاعة الهاتف الداخلي، قائلًا:
- أرسل آخر صورة لآثار أقدام (سي-١٧)، على سطح القمر.
قالها، وأنهى الاتصال على الفور، ثم انتقل إلى وحدة التحكُّم في الشاشة الكبيرة، وضغط زر التشغيل، فظهرت على الشاشة صورة، لآخر آثار أقدام (سي-١٧) على سطح القمر..
واحتبست أنفاس الجميع، وهم يحدقون في الشاشة..
فبكل وضوح، أثبتت الشاشة ما كان يدور في مخاوفهم..
آثار أقدام (سي-١٧) كانت، في آخر خطواتها، مبتورة..
لقد سحبه شيءٌ ما، إلى أسفل بالفعل..
إلى باطن القمر..
خُيِّل إليهم أن القاعة قد خلت من الهواء أو كادت، مع تلاحق أنفاسهم، وصاحب الصوت الخشن يشير إلى الشاشة، قائلاً بكل توتره:
- هناك يكمن السر.
غمغم أحدهم بأنفاسٍ مبهورة:
- هل تعتقد أن رائديَّ الفضاء الآخَريْنِ، يمكنهما أن...
قاطعه صاحب الصوت الخشن، قبل أن يكتمل سؤاله:
- كلا.. ليست لديهما أية إمكانيات؛ لبلوغ مرحلة أكبر.
تساءل آخر:
- ماذا يمكن أن يحدث إذًا؟!
صمت صاحب الصوت الخشن لحظاتٍ، ثم قالَ:
- كل ما نملكه هو أن نرسل مكوكًا فضائيًّا مع معدات كافية لفحص تلك المنطقة.
تساءل ثالث، في خفوتٍ متوترٍ:
- وهل سيبقى (سي-١٧) حيًّا حتى يصل المكوك الآخر؟!
طال صمت صاحب الصوت الخشن هذه المرة قبل أن يجيب، في مزيج من الحزم والتوتر واليأس:
- كلَّا.
وهنا هبط على الكل صمتٌ ثقيلٌ..
للغاية..

* * *

حمل صوت السفير الأمريكي نبرة متعالية وهو يجلس أمام رئيس الجمهورية المصري، قائلًا:

- الإدارة الأمريكية تعترض بشدة على معاملة السلطات المصرية لأحد جنرالاتها، وهو ما لا يصح حدوثه، ما تقدمه (أمريكا) لـ(مصر)، من مساعدات اقتصادية وعسكرية، و...

قاطعه رئيس الجمهورية، في هدوءٍ صارمٍ:

- ينبغي ألا يتعارض هذا مع السيادة المصرية أيها السفير.

قال السفير، في مزيج مستفز من الصرامة والغطرسة:

- ولا مع الكرامة الأمريكية يا فخامة الرئيس.

صمت رئيس الجمهورية لحظاتٍ وهو يتطلَّع إليه، ثم قال في حزمٍ:

- رجلنا أدى واجبه، وفقًا لمقتضيات وظيفته أيها السفير.

قال السفير مستنكرًا:

- هكذا ؟!

أجابه الرئيس في هدوءٍ صارمٍ:

- هكذا.

نهض السفير في حركة حادة، وقال في عصبية واضحة:

- سأبلغ إدارتي موقفكم يا فخامة الرئيس، وأخشى أن ينعكس هذا على استمرار المعونات العسكرية، و...

قاطعه الرئيس في صرامة:

- «محمد علي».

لم يفهم السفير ما يعنيه هذا في البداية، ثم انتبه إلى أن الرئيس ينادي مدير مكتبه، الذي دلف إلى المكان استجابة للنداء، وهو يقول في احترامٍ:

- أمرك سيادة الرئيس.

أشار إليه الرئيس، قائلًا:

- أبلغ وزير الدفاع الروسي أنني مستعد لاستقباله مساء اليوم.

غمغم السفير مبهوتًا:

- السفير الروسي؟!

اعتدل الرئيس في مقعده وهو يقول في حزمٍ:

- أمر لا شأن لك به، أيها السفير الأمريكي.

تنحنح السفير في توتر، وهو يقول:

- فخامة الرئيس.. الصداقة المصرية الأمريكية أقوى من مجرَّد حادثٍ فرديٍّ.

أجابه الرئيس بكل الصرامة:

- السيادة المصرية تفوق حتى الصداقة مع أية دولة أخرى أيها السفير.

صمت السفير بضع لحظات، والتوتر يملأ كل لمحة من ملامحه، ثم قال بكل ما يغلي في عروقه من انفعالاتٍ:

- سأبلغ رؤسائي.

غمغم الرئيس وهو يشير بيده، وكأنه ينهي المقابلة:

- عظيم.

انصرف السفير الأمريكي ووجهه يكاد يتفجَّر من فرط الاحتقان، فاعتدل الرئيس يسأل مدير مكتبه:
- ما آخر الأخبار من المنطقة ألف وواحد؟!
أشار مدير المكتب بيده، مجيبًا:
- رجُلنا يسيطر على الموقف تمامًا يا سيادة الرئيس.
سأله الرئيس بكل الاهتمام:
- وماذا عن المهندس الذي اختفى؟!
أجابه مدير المكتب في سرعة:
- خطة استعادته ستبدأ..
وألقى نظرة على ساعته، قبل أن يضيف:
- الآن يا سيادة الرئيس.
وعلى الرغم من خبراته الطويلة، والمواقف الصعبة العديدة التي اعتاد مواجهتها، لم يستطع الرئيس منع نفسه، من الشعور العنيف بالقلق..
هذا لأن ما تواجهه (مصر)، ويواجهه العالم هذه المرة، هو أخطر ما مرَّ به في حياته..
كلها..

* * *

« عبر الفجوة..»
قال البروفيسير «عمر» الكلمة في انفعالٍ واضحٍ، فتطلع إليه الجميع في صمتٍ مبهورٍ، قطعه المقدِّم «مشهور» وهو يسأل:
- كيف علمت؟!
أشار البروفيسور «عمر» إلى شاشة جهازه مجيبًا:
- خفَّضتُ سرعة عرض الصور على الشاشة إلى صورة واحدة كل ثلاثين ثانية.
غمغمت «إلهام» وهي تقترب لتلقي صورة أوضح على الشاشة:
- أهذا ممكن؟!
أجابها وهو يتنحى جانبًا حتى يفسح مجال الرؤية للجميع:
- ليس في الأجهزة العادية.
تطلع الكل في اهتمامٍ بالغٍ إلى ما تعرضه الشاشة في بطءٍ شديدٍ..
كان «شريف» يرقد وسط تلك الدائرة المعدنية، ومن حوله تتكوَّن دائرة حمراء، أخذت تتسع، مع انخفاض الطاقة الكهرمغناطيسية من حوله..
وتتسع..
وتتسع..
ومع بلوغ مستوى الطاقة ما يقرُب من الصفر، استقرَّت الدائرة الحمراء، حول جسد «شريف»، الذي بدا كالفاقد الوعي وسطها..
ثم قطعت شهقة الدكتورة «أشلي» القوية الصمت..
فمع بطء العرض الشديد، بدت ثلاثة ظلال حمراء واضحة، تخرج من تلك الدائرة الحمراء، وتحمل جسد «شريف»، ثم تعود به إلى داخل الدائرة..
ثم دوت تلك الفرقعة..
واختفت الدائرة..

واختفى «شريف»..
وعلى الرغم من تكرار هذا، سرَتْ في جسد الكل قشعريرة باردة، مع رؤية جسده يختفي..
ومع نهاية العرض، هبط عليهم جميعًا صمت ثقيل..
ثقيل للغاية..
ثم كان المقدِّم «مشهور» هو من قطع الصمت هذه المرة، وهو يقول متنحنحًا:
- إذًا فقد أخذوه!
غمغمت «أشلي»:
- السؤال هو: إلى أين؟!
تمتمت «إلهام»، في صوتٍ لم يفارقه التوتر بعد:
- نعم.. إلى أين؟!
بدا البروفيسير «عمر» منزعجًا، وهو يقول:
- ولكن الأشباح لم تختطف بشريًا من قبل ..عالمها يختلف عن عالمنا، و..
قاطعه المقدِّم «مشهور» في توتُّرٍ:
- ومن قال إنها أشباح؟!
قلب البروفيسير «عمر» كفيه، متسائلًا:
- وماذا يمكن أن تكون؟!
أجابته «أشلي» في انفعال:
- إما مخلوقات من عالم آخر، أو من بُعدٍ آخر.
هتف «أنور»:
- سنعود إلى تلك النظرية إذًا.
أشار الدكتور «خالد» إلى مخطوطة في يده وهو يقول:
- ربما نجد الجواب هنا.
سأله المقدِّم «مشهور» في اهتمامٍ:
- وما هذا بالضبط؟!
لوَّح الدكتور «خالد» بالمخطوطة، قائلًا:
- أقدم مخطوطة، أمكنني التوصُّل إليها.. مخطوطة وضعها راهب تبتيٌّ قديمٌ، يصف بكلماته حالة مماثلة:
- تساءلت «أشلي» في خفوتٍ منفعلٍ:
- أشباح اختطفت بَشريًّا؟!
هزَّ رأسه نفيًا، مجيبًا:
- بل ما هو أعجب من هذا.
قالها، وفتح المخطوط، وبدأ يقرأ..
وتفجَّر الذهول في عقل الجميع..
بلا استثناء..

* * *

رأسه كان يدور..
ويدور..

ويدور..
وفي عقله، ارتسمت دائرة حمراء..
وبدا له وكأنها تلتهم خلايا مخه، خلية بعد أخرى، في بطءٍ وحشيٍّ مخيفٍ مؤلمٍ..
ومن حوله سمع عدة أصوات..
أصوات بشرية، ولكنها تتحدَّث بلُغَةٍ غير مفهومة..
فمخارج الألفاظ بدت له أشبه بالعربية..
ولكن الكلمات ليست كذلك..
كان من الواضح أنه هناك أكثر من شخص، يلتفُّون حوله..
وأنه يرقد على فراش مخمليٍّ ناعم..
أو أن جسده يسبح في الهواء..
كان يريد أن يفتح عينيه، إلا أن هذا بدا له عسيرًا، وكأن ثقلًا هائلًا يجثم على جفنيه..
وعلى الرغم من هذا فقد حاولَ..
وحاول..
وحاول..
ثم بدا له أنه قد بدأ يستوعب ما يقال من حوله..
الكلمات بدأت تتضح، كما لو أنها قد ترجمت إلى العربية..
«الآن يمكنه أن يفهمنا؟!»
سمع أحدهم يلقي السؤال، وآخر يجيبه في اهتمامٍ:
- المفترض هذا.
تساءلَ صاحب السؤال الأوَّل:
- ألستَ واثقًا؟!
أجابه الآخر:
- إنها أوَّل مرة نختبر فيها هذا.
بذل «شريف» كل جهده ليفتح عينيه، وهو يغمغم:
- أين أنا؟!.. ومن أنتم؟!
أدهشه أنه لم يلقِ سؤاله بالعربية..
ولا بأيَّةِ لغة يعرفها..
لقد ألقى السؤال بلغة لا يعرفها..
وربما لا يعرفها أي مخلوق على وجه الأرض..
ولكن العجيب أنه نطقها.. والأعجب أنه فهمها..
«هل استعدت وعيك؟!»
أتاه السؤال بنفس اللغة، التي فهمها، على الرغم من ثقته في أنه لم يسمعها في حياته من قبل، فغمغم مكرِّرًا:
- أين انا؟!
شعر بأنفاسٍ تقترب منه، مع صوت يجيب في هدوءٍ:
- اطمئن.. ما زلت على كوكب الأرض.
الجواب جعله يفتح عينيه، و...

وعلى الرغم منه، اتسعت عيناه عن آخرهما بكل الذهول، وهو يحدِّق فيما حوله..
فما سمعه لم يكن ينطبق على ما يراه من حوله..
من المستحيل أن يكون بالفعل على كوكب الأرض!!
من المستحيل تمامًا!
* * *

الفصل العاشر

«كما كان الأوَّلون نكون..»

قرأ الدكتور «خالد» هذه الكلمات في المخطوط التبتيِّ القديم، فغمغمت «إلهام» في عصبيةٍ:

- مَن يقصد بالأوَّلين؟!

قالت الدكتورة «أشلي» في حدةٍ:

- ألا تحمل جيناتك الوراثية ذرةً من الصبر؟!

هتفت بها «إلهام» في عصبيةٍ:

- ليس هذا من شأنك.

قال الدكتور «خالد» في صرامة:

- الأفضل أن نركِّز على عملنا، لو أردنا استعادة زميلنا.

أطبقت كلتاهما شفتيها مع كلماته، وإن تبادلتا نظرة متحدية، في حين قال «أنور» في اهتمامٍ:

- دعني أكرِّر السؤال يا دكتور «خالد».. ماذا كان يقصد راهب (التبت)([15]) بكلمة (الأوَّلين) هذه.

صمت الدكتور «خالد» لحظةً، ثم أجاب في حذرٍ:

- من سادوا الأرض في البداية.

مطَّت الدكتورة «أشلي» شفتيها، وهي تقول مستنكرة:

- ليس الديناصورات بالتأكيد.

التفت إليها في دهشة:

- ومن تحدَّث عن الديناصورات؟!

أجابته في صرامة، ليس لها عمليًا ما يبرِّرها:

- الديناصورات وحدها سادت الأرض، منذ مائتين وثلاثين مليون عام، وحتى خمسة وستين مليون عامًا مضت، عندما انقرضت في العصر الطباشيري بسبب كارثة غير معلومة بالتحديد، والإنسان لم يظهر على الأرض إلا بعد انقراضها بملايين السنين([16]).

أشار بسبَّابته، قائلًا:

- هذه واحدة من النظريات العلمية.

هتفت:

- بل هي نظرية موثَّقة.

ظل هادئًا، وهو يقول:

- بل هي واحدة من نظريات مختلفة؛ فلو أنَّكِ تَهتمِّين بالتاريخ القديم، بقدر اهتمامك بالفلك والفضاء، لعلمت أنه هناك عدة نظريات تعارض هذا، وتؤكِّد أن الإنسان تواجدَ مع الديناصورات، في وقتٍ واحدٍ، في الأزمنة الغابرة.

عادت تهتف مستنكرة:

- مستحيل!!.. كل النظريات تؤكِّد أن الإنسان والديناصورات لم يجتمعا قَطُّ.

كادت «إلهام» تنفجر في وجهها، وهمَّ «أنور» بقول شيءٍ ما، عندما استوقفهما الدكتور «خالد»، وهو يقول:

- لعلك لم تقرئي مقال «بوب دوتكو»، الذي أشار فيه إلى وجود أدلة تثبت أن الإنسان قد رأى الديناصورات، رَأْيَ العين، في مرحلةٍ ما.. وصفها «ماركو بولو»، الرحالة الإيطالي الشهير،

وتحدَّث عنها المؤرخ القديم «هيرودوت»، وأشار إليها «الإسكندر الأكبر»، وحتى الرسوم الفرعونية القديمة، نقلت لنا بعضها([17]).

لوَّحت بذراعها كلها، هاتفةً:

- خيال جامح فحسب.

هزَّ رأسه نفيًا، وهو يقول:

- عندما يصف بشر ديناصورات، انقرضت قبل ظهور الإنسان، فهذا له احتمالان، لا ثالث لهما.. إما أنهم استنبطوا شكلها وهيئتها الحية، من أشكال هياكل قديمة عثروا عليها، أو أنَّ القدامى رأوها رَأْيَ العين، وعايشوها، وتركوا رسومًا لها، أو وصفًا دقيقًا لهيئتها.. ولـمَّا لم تكن العلوم قد تطوَّرت في تلك العصور، على النحو الذي يسمح بإعادة تكوين هيئة زاحف عملاق قديم استنادًا إلى سمات هيكله العظمي، لا يتبقى لنا إلا أن أحدهم قد رأى الديناصورات رَأْيَ العين، وهذا لا يتأتَّى إلا لو كان الإنسان قد عاش مع الديناصورات في حقبة واحدة، على عكس الشائع علميًا.

اختلفت ملامحها، بين الشك والاستنكار والعصبية، ولكن صوتها انخفض وهي تقول:

- إنك تهدم بهذا عدة نظريات علمية يا دكتور «خالد».

هزَّ كتفيه، قائلًا:

- هكذا العِلم يا عزيزتي «أشلي».. إهانة مستمرة للذكاء البشري.. علماء يضعون نظرية، تفسِّر بعض الغموض، ولكنها تحيط عشرات الأمور الأخرى بغموضٍ أكثر، ثم تأتي نظرية جديدة، تفسِّر ما غمض على النظرية الأولى، ولكنها تحبط أمورًا أخرى بغموضٍ أكثر.. هذا هو المسار الطبيعي للعلم.. أليس كذلك؟!

غلب شكها استنكارها هذه المرة، فانخفض صوتها أكثر، وهي تغمغم:

- لا يوجد أي دليل على هذا.

أجابت «إلهام» هذه المرة:

- ولا يوجد دليلٌ على العكس أيضًا:

وربما لأوَّل مرة، التفتت إليها «أشلي» دون توتر، وهي تغمغم:

- الدراسات العلمية والحفريات، تقول: إن الإنسان لم يظهر بشكله البدائي على الأرض، إلا منذ ستة ملايين عامًا فحسب، أما الإنسان الحديث كما نعرفه، فقد ظهر في (أفريقيا)، منذ مائتي ألف عام فحسب([18]).

مطَّ الدكتور «خالد» شفتيه، وهو يهز رأسه لحظات، قبل أن يسأل الدكتورة «أشلي» بغتة:

- هل قرأت كتاب (سيموس ويلز)، الذي صدر عام ١٨٩٧م، والذي يعد من أندر الكتب حاليًا.

غمغمت:

- هل تعني (الناس الأوائل) (The First People)؟!([19])

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- في ذلك الكتاب، تحدَّث «ويلز» عن جنسٍ عاقلٍ ذكيٍّ، تواجد على كوكب الأرض، وكانت له حضارة عظيمة، سبقت أو تواكبَتْ مع عصر الديناصورات.

هتف، في خفوتٍ مُتخاذِلٍ:

- لست أظنك تصدِّق مثل هذا الهراء!

همَّ بإجابتها، لولا أن تنحنح «أنور»، وقال في تردُّدٍ:

- معذرة يا دكتور «خالد».. سامحيني يا دكتورة «أشلي»، ولكنني أعتقد أن هذه المحاورة العلمية لن تساعدنا في استعادة زميلنا المفقود.
تضرَّج وجه «أشلي» بحمرة خجل، في حين غمغم الدكتور «خالد»:
- لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يساعدنا يا فتى.
نقلت «إلهام» بصرها بين ثلاثتهم، قبل أن تقول:
- ما رأيكم لو ننضم إلى الباقين؟!.. ربما لو تبادلنا الأفكار.. ربما.
لم تكن عبارتها مكتملةً، ولكنها كانت واضحة، حتى إن الجميع التفتوا إليها في صمتٍ تامٍّ..
صمت ثقيل..
للغاية..

* * *

كل شيء حوله كان مُدهِشًا..
مُبهِرًا..
ومُذهِلًا..
فعلى عكس الصخور الصماء، والصحراء الباردة التي تمتد إلى مدى البصر على سطح القمر، كانت تلك القاعة، التي وجد «ميلروي» نفسه داخلها، تحفة تكنولوجية من الطراز الأوَّل..
أو فوق الأوَّل..
أرضية مصنوعة من قطعة واحدة، من معدنٍ لامعٍ، له لون شمبانيٌّ باهت، مع حمرة خفيفة..
جدران مضيئة على نحوٍ خلَّاب مُبهِرٍ..
شاشات هولوجرامية كبيرة، تسبح في فراغ القاعة..
خريطة كونية ثلاثية الأبعاد، تصوِّر كوكب الأرض من الفضاء..
أو أنه كوكب شبيه بالأرض..
كوكب يحوي كل القارات السبع المعروفة([20])..
ولكن ليس بالترتيب المعروف..
كانت متقاربة كلها، على نحوٍ يختلف عما هي عليه، تاركة باقي مساحة الكوكب كمحيطٍ هائلٍ متَّصَلٍ..
أو مثل (تيثيس) (Te Thys)، في النظرية القديمة([21])..
وفي فراغ القاعة، كانت تسبح عبارات وكلمات، بلغة غير معروفة على الأرض..
وعلى إحدى الشاشات الهولوجرامية، كان هناك جزء يضيء وينطفئ، وكأنه يدعو رائد الفضاء الأمريكي للاقتراب منه..
وبكل ما يعتمل في نفسه من انفعالات، قال «ميلروي»، عبر جهاز الاتصال في خوذته:
- (ناسا).. هل ترون ما أراه.
لم يتلق جوابًا، فأغلق جهاز الاتصال وأعاد تشغيله، قائلًا:
- (ناسا).. هل تسمعونني؟!
مرة أخرى، لم يتلق جوابًا، فغمغم في توترٍ:
- كان ينبغي أن يشاركوني هذا.
ازدرد لعابه في صعوبةٍ، وتعلَّق بصره بتلك النقطة المضيئة على الشاشة الهولوجرامية الكبيرة، ثم اتجه إلى تلك الشاشة، وتردَّد بضع لحظات، قبل أن يمد يده ويلمس تلك النقطة المضيئة، و...

«اخلع خوذتك أيها الرائد..»
انتفض جسده كله داخل حلته الفضائية، عندما انبعث ذلك الصوت من كل مكان بالقاعة تقريبًا، وتلفَّت حوله في توتر، مغمغمًا في دهشة مستنكرة:
- أخلع خوذتي!
عاد ذلك الصوت مجهول المصدر يكرّر:
- اخلع خوذتك.. الجو ملائم لك.
تردَّد «ميلروي» لحظاتٍ، ثم ضغط زر رفع خوذته في حذرٍ، فتوقَّف ضخ الأكسجين داخلها على نحو تلقائيٍّ، ورفعها في حذرٍ، وهو يستنشق الهواء من حوله..
ولدهشته، بدا له الهواء نقيًا منعشًا..
ومناسبًا..
وبكل دهشته، تمتم:
- أين أنا بالضبط؟!
ألقى سؤاله، وهو لا يتوقع الحصول على جواب له، إلا أنه فوجئ بردٍّ تلقائيٍّ سريعٍ:
- داخل كبسولة تعارُف خاصة.
غمغم في توترٍ:
- تعارُف مع مَن؟!
أتاه ذلك الصوت الهادئ، يجيب:
- شاهِدْ.
ومع الكلمة، راحت الشاشة الهولوجرامية تعرض، ما بدا أشبه بفيلم تسجيلي ثلاثي الأبعاد..
واتسعت عينا «ميلروي» عن آخرهما..
فما يراه، على تلك الشاشة الهولوجرامية، كان مبهرًا مذهلًا..
بكل المقاييس..

* * *

«ماذا أنتم؟!»
هتف «شريف» بالسؤال بكل الرعب في أعماقه وهو يحدِّق في الوجوه الملتفة حوله..
كائنات لها أجساد بشرية التكوين، ولكن عيونها واسعة، بينها أنفٌ كبيرٌ، أسفله فم دقيق..
أما الرؤوس، فكانت صلعاء تمامًا..
الكل كانوا متشابهين، كما لو أنه قد تم استنساخهم من خلية واحدة..
أما المكان المحيط به، فقد أصابه برعبٍ حقيقيٍّ...
كان يرقد على شيءٍ أشبه بدفق هوائي، يسبح جسده فوقه في نعومة، ونافذة كبيرة أمامه، تطلّ على مبانٍ عالية بعيدة متناسقة، خلفها سماء اختلطت زرقتها بحمرة خفيفة، مع قليل من سحب رمادية تميل أطرافها إلى البرتقالية..
إنه ليس على كوكب الأرض حتمًا..
كان هذا أوَّل ما خطر بباله، وهو يحدِّق في كل ما حوله، في رعبٍ شديدٍ، و...
«اهدأ أرجوك.. لا نريد بك شرًا..»
سمع الكلمات وفهمها في وضوحٍ، على الرغم من أنها لم تنطق بأية لغة معروفة، فحدَّق في وجه قائلها في ارتياع، وهو يقول:

- لماذا أحضرتموني إلى هنا؟!
مالَ عليه أحد أصحاب الوجوه المستديرة، وقال في هدوءٍ ومودَّة:
- ستعود إلى عالمك.. اطمئن.
حاول أن يعتدل فوق تلك الوسادة الهوائية وهو يقول في توتر عصبي:
- لماذا اختطفتموني من عالمي؟!
رآهم يتبادلون نظرة بائسة، بعيونهم الكبيرة الواسعة، قبل أن يقول آخر:
- كانت فرصة مثالية للتواصل، لم نستطع إضاعتها.
هتف، وهو ما زال يحاول النهوض عبثًا:
- أي تواصل؟!
مدَّ أحدهم يده إليه لمساعدته على النهوض، ولكنه تراجع في فزع، وكأنما يخشى أن يلمسها، فقال صاحب اليد في ارتباكٍ:
- أردت مساعدتك فحسب.
تردَّد «شريف» لحظاتٍ، ثم مدَّ يده إليه في حذرٍ، فالتقطها في رفقٍ، وجذبه في خفة، مما ساعده على النهوض، فوق تلك الوسادة الهوائية الناعمة، فجلس على طرفها، وشعر بها تتكيَّف مع وضعه، فغمغم:
- هذا أفضل بالتأكيد.
ثم انتبه فجأة إلى الموقف، فعاد يهتف في توتر:
- كيف يتأتى أن أفهمكم؟! لغتكم تختلف عن أية لغة عرفتها في حياتي!!
تبادلوا نظرة أخرى بعيونهم الواسعة، قبل أن يقول أحدهم:
- ليس هذا هو التغيير الوحيد الذي صنعناه بك حتى يمكنك التعايش مع طقسنا.
امتقع وجهه وهو يتساءل مبهوتًا:
- ماذا فعلتم بي؟!
حاول أحدهم تهدئته بلهجة ناعمة وهو يجيب:
- نسبة الأكسجين في هوائنا تقل كثيرًا عن نسبته في موطنك، والجاذبية كذلك تختلف بعض الشيء، ولهذا كان من الضروري تكييف جسدك؛ حتى لا تتعرَّض للخطر هنا.
جفَّ حلقُه، وهو يسأل في صعوبةٍ:
- ماذا فعلتم؟!
تردَّدوا جميعًا لحظاتٍ، ثم قال أحدهم في حذَرٍ:
- قمنا بتعديل موروثاتك قليلًا.
اتسعت عيناه في رعبٍ، وهو يهتف للمرة الثالثة:
- ماذا فعلتم بالله عليكم؟!
أجاب المواجه له في حذرٍ:
- أضفنا إليك مورِّثات قوية، تجعل جسدك قادرًا على التكيُّف، مع أيَّة ظروف خارجية.
شعر بحلقه كصحراء جافة، وهو يسأل:
- أي نوع من المورِّثات؟!
مرة أخرى تبادلوا النظر، ثم لوَّح أحدهم بيده في حركة ناعمة وهو يجيب:
- مورِّثات ما تسمونه (دب الماء) في وطنك.

مع حركة يده الناعمة، ارتسمت في الهواء صورة ثلاثية الأبعاد..
صورة لكائن عجيب..
كائن اتسعت لمرآه عينا «شريف»، في رعبٍ هائلٍ..
فذلك الكائن الذي لم يره في حياته قط، كانت له هيئة رهيبة مخيفة..
هيئة مرعبة..
بلا حدود..

* * *

«(تارديجرادا) (Tardigrada).. كائن ميكروسكوبى، يُعرَف باسم (بطيئات المشية) أو (دب الماء) ، وهو كائن يسير ولا يزحف.. له ثمانية أرجل، لكل منها أطراف هدبية»([22]).

قالها الجنرال «دوايت» وهو يصف ذلك الكائن المخيف الذي ظهرت صورته على شاشة الكمبيوتر الكبيرة، في القاعة التي ضمت باقي الكبار، فغمغم صاحب الصوت الخشن في عصبية:

- وكيف يمكن دمج جينات هذا البشع بجينات البشر؟!

أجابه الجنرال «دوايت» من موقعه في المبنى الدائري في صحراء «مصر»:

- هذا الكائن، الذي تصفه بالبشاعة، هو أقوى كائن معروف على وجه الأرض، على الرغم من ميكروسكوبيته، وعلى الرغم من أنه موجودٌ حولك في كل مكان تقريبًا دون أن تراه أو تشعر به.. إنه الكائن الوحيد على وجه الأرض، الذي يعتقد العلماء أنه كان موجودًا منذ بدء الخليقة، دون أن تتغيَّر أيٌّ من سماته الأساسية، ويعتقد البعض الآخر أنه جاء إلى الأرض، على متن بعض النيازك، التي سقطت عليها من الفضاء الخارجي، خاصةً وأنه كائنٌ شبهُ خالدٍ، يستطيع احتمال نقص الماء لسنواتٍ، ويحيا في غياب الأكسجين، وفي حرارة تبلغ الصفر المطلق هبوطًا، أو مائة وواحد وخمسين درجة مئوية، واستطاع العيش في الفضاء في غياب الهواء والضغط والحرارة لسنوات، كما أنه يحتمل الإشعاعات النووية، إذا ما بلغت ألف ضعف، ما يكفي لقتل إنسان بالغ([23]).

بدا الكل مبهوتين لما يسمعونه، وغمغم صاحب الصوت الخشن بعد وهلةٍ من الصمت التام:

- هذا يعني أنه، عند إضافة جينات ذلك الكائن البشع إلى جينات كائن بشري سنحصل على...

لم يستطع إتمام عبارته، فقال الجنرال «دوايت» في حزمٍ:

- سوبرمان حقيقي.. نعم يا رجل.. كائن بشري، تضيف إليه جينات (التارديجرادا)، سيصبح سوبرمانًا فعليًا، مقارنة بباقي البشر مِن حوله.

قال آخر، والانبهار لم يفارقه بعد:

- لهذا استطاع ذلك الكائن السَّيْرَ على القمر، متجاهلًا نقص الهواء، وضعف الضغط والجاذبية!!

أومأ الجنرال «دوايت» برأسه إيجابًا، وقال:

- وربما هذه أقل قدراته.

هتف صاحب الصوت الخشن في عصبية:

- ما زال سؤال كما هو.. كيف يُمكِنُ دمج جينات كائن بشع، مع جينات بشرية، أيًا كانت قدرات ذلك البشع؟!

أجابه «دوايت»:

- هذا مستحيل!

ثم استدرك في سرعةٍ:

- بالنسبة للعلوم المعروفة في عالمنا.
تبادل الرجال نظرةً شديدة التوتر، ثم قال أحدهم بأنفاسٍ مبهورةٍ:
- هذا يعدينا إلى نظرية اللقاء من النوع الثالث مع كائنات من عالم آخر([24]) ..
ران على المكان صمت تام ثقيل، فور أن انتهى الرجل من عبارته، وتعلَّقت عيون الكل بالشاشة الكبيرة، التي تنقل صورة الجنرال «دوايت» من (مصر)، في انتظار جوابه.. وللحظات بدت أشبه بدهرٍ كاملٍ، صمت الجنرال «دوايت»، ثم لم يلبث أن اعتدل على مقعده، وقال:
- الواقع أنه، وبعد دراسة عميقة وطويلة، توصَّل علماؤنا إلى نظرية جديدة.. ومدهشة.
وما إن بدأ يشرح النظرية حتى اتسعت العيون عن آخرها.
فالمفاجآت والصدمات لم تنتهِ بعد..
بل تزداد ارتفاعًا..
بكل قوة.

* * *

الفصل الحادي عشر

«ما زلت تبدو مصدومًا..»
نطقها أحد أصحاب الوجوه المستديرة في تعاطف مشفق، وبتلك اللغة التي لا يعرفها عالمنا، والتي يفهمها «شريف» لسبب ما؛ فالتفت «شريف» إلى قائلها في بطءٍ، وغمغم في مرارةٍ:
- لو كنت في موضعي، أكان سيسعدك أن تعلم أن جيناتك قد امتزجت بجينات وحش كهذا.
تطلَّع إليه صاحب الوجه المستدير لحظة في إشفاق، ثم جلس إلى جواره، قائلًا في تعاطفٍ:
- مصطلح الوحش هذا فيه مبالغة كبيرة؛ فالكائن الذي حميناك بزوج من مورَّثاته، مجرَّد كائن ميكروسكوبي، ونحن لم ننقل لك ما يتعلَّق بهيئته أو تكوينه.. لقد اكتسبت فحسب مقدرته المذهلة على مقاومة كل عوامل الطقس من حوله.
قال «شريف» في مرارة، حملت لمحة من الحدة:
- أتريد أن تقول إنكم قد فعلتم هذا لصالحي؟!
هتفَ في سرعةٍ:
- بالتأكيد.
وصمت لحظةً، قبل أن يستدرك:
- وستكتشف هذا بنفسك.
قال «شريف» في دهشةٍ متوتِّرةٍ:
- ماذا تعني؟!
صمت صاحب الوجه المستدير طويلًا هذه المرة، قبل أن يجيب في بطءٍ:
- اترك هذا للزمن.
لم يرق هذا الجواب لـ «شريف»، فمطَّ شفتيه، وأشاح بوجهه في امتعاض؛ مما جعل صاحب الوجه المستدير يمس كتفه في رفقٍ، وهو يغمغم:
- كيف يمكننا إقناعك بأننا لا نريد بك شرًا.
التفت إليه «شريف» في حِدَّةٍ:
- مِن منظور مَن؟!
تراجع صاحب الوجه المستدير مصدومًا، ثم قال في ارتباكٍ:
- هذه واحدة من أعظم لحظات التاريخ وأنت تقاومها في عنفٍ، على الرغم من أنك تؤدي أعظم خدمة للكون.
صاحَ فيه «شريف» في غضبٍ:
- لماذا يستخدم كل منكم صيغ المبالغة الزائدة هذه، كلما وصف موقفي؟!.. لماذا لا نواجه الواقع.. أنا مجرَّد مهندس معلومات سقط فريسة صراع بين عالمين، دون ذنب جناه.
مرةً أخرى، تراجَعَ صاحب الوجه المستدير مصعوقًا، قبل أن يقول في توترٍ ملحوظٍ:
- ولكنك بالفعل سفير غير عادي، بين حضارتين عظيمتين.
صاح «شريف»:
- ودون أن أفهم حتى لماذا أنا كذلك!!
صمت صاحب الوجه المستدير طويلًا مرةً أخرى، قبل أن يتمتم في ارتباكٍ:
- الواقع أن الأمر شديد التعقيد، حتى إننا ما زلنا نجهل ما هي الوسيلة المثلى لنشرحه لك.

قال في عصبية:
- يمكنكم أن تفترضوا بي الذكاء.
غمغم:
- نحن واثقون من هذا، ولكن...
قاطعَهُ في عصبيةٍ أكثر:
- ولكن ماذا؟!
عاد صاحب الوجه المستدير إلى صمته بعد أن أطلق تنهيدة طويلة، وبدت على وجهه المستدير علامات تفكير عميق، قبل أن ينتزع نفسه من صمته ويسأل «شريف»:
- هل سمعت عما يسمى بالمسار الثعباني؟!
بدت الدهشة على وجه «شريف» وهو يقول:
- مسار ثعباني؟!
استخدم صاحب الوجه المستدير ذراعيه، على نحوٍ مُبالِغٍ، وهو يقول:
- إنها مساراتٌ كونيةٌ تسمح لمن يعبرها بالخروج في زمنٍ آخرَ، أو...
قاطعه «شريف» في توتر:
- آه.. هذا ما نطلق عليه لدينا اسم (الثقب الدودي)([25])
التقط صاحب الوجه المستدير نفسًا عميقًا، وغمغم:
- الاسمان متشابهان، ولكن المبدأ العلمي واحد.
سأله «شريف» بنفاد صبرٍ:
- ماذا عنها؟!
عاد صاحب الوجه المستدير يستخدم ذراعيه، وهو يقول:
- كانت تلك المسارات الثعبانية، أو الثقوب الدودية، مجرَّد فرضيات حتى أمكننا رصدها عام ستة آلاف وسبعة.
توقَّف «شريف» عند هذه النقطة، وهو يهتف:
- ستةُ آلافٍ وسبعةٌ؟!
مسَّ صاحب الوجه المستدير كفَّهُ مرةً أخرى في رفقٍ، وهو يقول:
- تاريخنا يختلف.
مطَّ «شريف» شفتيه، دون أيِّ تعليقٍ، فتابع صاحب الوجه المستدير معاودًا حركة ذراعيه:
- ومع تطوُّر رحلاتنا الفضائية الاستكشافية، استطعنا سبرَ أغوار المسارات الثعبانية، وعمل خريطة دقيقة لها، تساعدنا على الانتقال إلى...
قاطعه «شريف» في عصبية:
- عوالم أخرى.. أليس كذلك؟!
تطلَّع إليه صاحب الوجه المستدير في دهشةٍ، فتابع في عصبيةٍ:
- السؤال الآن هو: هل باستطاعة علومكم، في قرنكم الستين، إيجاد وسيلة لإعادتي إلى عالمي.. لا أريد أن أموت خارج الأرض.
ازدرد صاحب الوجه المستدير لعابَهُ في صوتٍ مسموعٍ، ثم أشار بيده، قائلًا في توتُّرٍ:
- نحن في قرننا الحادي والستين وليس الستين، والمشكلة أنك لن تستطيع استيعاب هذا في يسر، كما عجزنا نحن عن استيعابه في البداية.

صاح «شريف» في حدةٍ:
- لست أريد استيعاب شيءٍ.. أريد العودة إلى الأرض.. هل تفهم.. إلى كوكبي الأرض.
ازدرد صاحب الوجه المستدير لعابه مرةً أخرى، قبل أن يقول في ارتباكٍ شديدٍ:
- هذا بالضبط ما خشينا أن يعب عليك استيعابه.
ثم مالَ نحوه، مستطردًا بكل توتره:
- إنك لم تغادر كوكب الأرض قطُّ.
واتسعت عينا «شريف» عن آخرهما..
ولم يصدِّق ما تسمعه أذناه..
لم يصدِّقه أبدًا..

* * *

ازدرد صاحب الصوت الخشن لعابه، في صعوبة كبيرة، وهو يجلس في قاعة الاجتماعات العلوية في (ناسا)، يستمع إلى الجنرال «دوايت»، الذي يملأ وجهه الشاشة الكبيرة، وهو يقول:
- عالمٌ موازٍ.. كونٌ آخَرُ.. هذه هي النظرية، التي توصَّل إليها العلماء.. كونٌ يماثل كوننا تمامًا، ولكنه يتقدَّم علينا بعدة سنواتٍ، في سُلَّم التطوُّرِ..
غمغمَ أحدُ الحاضرين في توتُّرٍ:
- أهذه نظرية علمية؟!
أجابه الجنرال «دوايت»:
- هناك مشاهدات علمية ومعملية، تثبت وجود عدة أكوان متوازية، تشترك معنا في نفس المساحة من الفضاء، ولكن لكل منها تردُّد يختلف عن الآخر(26)
تلفَّت أحدهم حوله على نحو غريزي متوتر وهو يغمغم:
- أتعني أن الأكوان الأخرى حولنا الآن؟!
أشار الجنرال «دوايت» بيده وهو يقول:
- ليس هذا فحسب، ولكن لكُلٍّ منا مثيل، في كل الأكوان حولنا، سواء أسميناها بالأكوان المتعددة (Multiverses)، أو الأكوان المتوازية (Pavallel Universes).. فأنا مثلًا قد أكون جنرالًا في كونٍ، ولكنني عامل بناء في كونٍ آخر، ولص بنوك في ثالث، وهكذا.
تبادل الكل نظرة متوترة، قبل أن يغمغم صاحب الصوت الخشن:
- أمر يصعب تصديقه.
قال الجنرال في حزمٍ:
- الراديو والمصباح الكهربي وصواريخ الفضاء، وحتى الهاتف المحمول، كانت كلها يومًا أمورًا يصعب تصديقها.
غمغم أحدهم:
- صدقت.
لوَّح صاحب الصوت الخشن بيده معترضًا، ثم قال في صرامة:
- أخبِرنا بصلة هذا بما نحن بصدده.
أجابه الجنرال في سرعة:
- الفجوة الحمراء، التي تم تسجيلها، هي في واقعها فجوة بين عالمين متوازيين.. محاولة من كون آخر لبلوغ كوننا.

هتفَ أحدهم:
- وكيف يمكن لكونٍ آخر، يختلف عنَّا في تردُّده، أن يبلغ عالمنا!
أجابه الجنرال:
- ربما لصعوبة هذا يظهرون لنا كأشباح حمراء، وليس كأجسادٍ يمكن لمسها.
قال صاحب الصوت الخشن في عصبية:
- فيما عدا زائر القمر.
قال الجنرال «دوايت» في سرعةٍ:
- أضف إليه اختفاء المهندس «شريف فؤاد».
هتف صاحب الصوت الخشن:
- بالضبط.
التقط الجنرال «دوايت» نفسًا عميقًا، وتراجع في مقعده، قبل أن يجيب:
- ما زالت نظرية الصفر الكهرومغنطيسى سارية.. الآتون من الكون الموازي يمكنهم التجسُّد، فقط في مناطق تنخفض فيها الطاقة الكهرومغناطيسية إلى الحد الأدنى..
قاطعه ارتفاع رنين هاتف صاحب الصوت الخشن، والذي أسرع يلتقطه، ويضغط زر الاتصال، هاتفًا:
- ما الجديد؟
حبس الجميع أنفاسهم، حتى الجنرال «دوايت» نفسه، وهم يتطلَّعُون إلى وجه صاحب الصوت الخشن، والذي امتقع في شدة، وهو يستمع إلى محدِّثه بقوله:
- أرسل الفيلم على الفور.
هتف به الجنرال «دوايت» فور إنهاء المحادثة:
- ما الجديد؟!
كان وجه صاحب الصوت الخشن شاحبًا وهو يجيب:
- لقد استعادوا الاتصال مع (سي- ١٧).
هتف الكل في آنٍ واحدٍ:
- حقًّا؟!
وتساءل الجنرال «دوايت» في توتر واهتمام:
- هذا ليس سبب شحوب وجهك.. ما الجديد؟!
ازدرد صاحب الصوت الخشن لعابه في صعوبة، وهو يجيب:
- (سي-١٧) أرسل فيلمًا، سجَّلَته آلة التصوير في خوذته وهو يحوي أمورًا مذهلة.. للغاية.
واحتبس الهواء في صدور الجميع، حتى كادوا يختنقِونَ، من فرطِ التوتُّرِ والفضولِ..
والرُّعْبِ أيضًا..
فكَلِمةُ مذهلة هذه، جعلت قلوبهم تخفق كألف ألف مضخةٍ..
أو أشد..

* * *

للمرة العشرين، راجعَ البروفيسير «عمر» ذلك الفيلم القصير للحظة اختفاء «شريف»، وجلس الكل من حوله صامتين مأخوذين، يراقبون الفيلم نفسه في يأسٍ مُحبطٍ..

كان يبطئ سرعة العرض في كل مرة، تساعده في هذا الأجهزة المتطوِّرة القوية، التي زوَّده بها الأمريكيون..
ولكن حتى مع تقسيم الفيلم إلى لقطات منفصلة، لم يتغيَّر شيءٌ..
أشباح حمراء تخرج من الدائرة، وتسحب «شريف» داخلها..
ثم يختفي كل شيء..
« هذا لا يكفي..»
نهض الدكتور «أكرم» من مقعده في حركة حادة وهو ينطق العبارة في صرامة، فغمغم الدكتور «خالد»:
- بالتأكيد.. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟!
نهضت الدكتورة «أشلي» بدورها وهي تقول:
- على الأقل ألا نجلس هنا ساكنين، نندب سوءَ حظنا فحسب.
تبعتها «إلهام» في النهوض، وهي تقول في حزمٍ:
- دعيني أتفق معك هذه المرة.
أشار «أنور» بيده، قائلًا:
- وأنا أيضًا.
أدار البروفيسير «عمر» بصره فيهم جميعًا، وغمغم في توتُّرٍ:
- عظيم.. ولكن السؤال ما زال كما هو: ماذا يمكننا أن نفعل؟!
قال المقدِّم «مشهور» الذي وقف في الخلف صامتًا طوال الوقت:
- نعيد تمثيل الجريمة.
التفت إليه الكُلُّ في دهشة، وغمغمت «أشلي» في حيرةٍ:
- أيَّة جريمة؟!
اعتدل في حزمٍ وهو يقول:
- مجرَّد مصطلح اعتدنا استخدامه، إبان عملي السابق في جهاز الشرطة.. مصطلح يعني إعادة الأحداث بنفس النسق والترتيب.
تألَّقت عينا الدكتور «أكرم» وهو يهتف:
- أنت عبقري يا سيادة المقدِّم.
غمغمت «إلهام» في عصبيةٍ:
- هل فاتني شيءٌ لم أفهمه؟!
هتف الدكتور «أكرم» في حماسٍ:
- أفضل ما يمكن أن نفعله.. سنعيد كل الخطوات مرةً أخرى، كما حدث بالضبط عندما اختفى المهندس «شريف».
بدت «أشلي» مبهوتةً، وهي تغمغم:
- نقطة الصفر الكهرومغناطيسي؟!
أجاب الدكتور «أكرم» بكل حماسه:
- وفي نفس الموقع، وتحت نفس الظروف.
انتقل حماسه إلى الجميع، فيما عدا البروفيسير «عمر» الذي غمغم:
- من المستحيل إعادة نفس الظروف..

هتفت «إلهام» مستنكرة:
- ولماذا ؟!
أجاب في توتر:
- هناك عاملٌ هامٌّ جدًّا مفقود.. المهندس «شريف» نفسه.
همَّ الدكتور «خالد» بقول شيءٍ ما، عندما قال المقدِّم «مشهور» في حزمٍ:
- سنستعيض عنه بشخصٍ آخر.
بدت الدهشة عليهم جميعًا، وغمغم الدكتور «خالد» في حذرٍ:
- مثل مَنْ؟!
شدَّ المقدِّم «مشهور» قامته، وهو يجيب في قوة وحزم:
- أنا.
وتفجَّرت دهشة الجميع أكثر..
ودوَّى صوتٌ هائلٌ..
للغاية..

* * *

« من المستحيل أن أصدِّق هذا!!...»
هتفَ «شريف» بالعبارة في عنادٍ، جعل صاحب الوجه المستدير يتطلَّع إليه لحظاتٍ في صمتٍ مُشفِقٍ، قبل أن يغمغم:
- لم يكن من السهل علينا أن نصدِّقه أيضًا.
لوَّح «شريف» بذراعه في حدةٍ، هاتفًا في عصبية:
- لا تحاول إقناعي بهذا.
صمت صاحب الوجه المستدير لحظةً، ثم تمتم في خفوتٍ:
- لستُ أحاول شيئًا.
حدَّق «شريف» في المشهد الذي يراه، عبر زجاج النافذة بالغ النقاء، وهو يكرِّر:
- لا تحاول..
كان من المستحيل عليه بالفعل أن يؤمن أو يصدِّق أنه ما زال على كوكب الأرض!
من المستحيل تمامًا!
كل شيء من حوله يختلف تمامًا عن كوكب الأرض..
ليس ما يحيط به من تكنولوجيا متقدِّم فحسب..
ولكن المناخ نفسه..
السماء ليست سماء الأرض الزرقاء التي يعرفها..
إنها سماء مشرَّبة بحمرةٍ خفيفةٍ تجعلها أقرب لمزيج من سماء الأرض والمريخ معًا([27])..
حتى السُّحُب، ليست بيضاء أو رمادية باهتة، كسحُب الأرض..
وتلك الأبنية التي تبدو من بعيدٍ، تشف عن تقنية بناء عالية، ولكنها لا تشبه أي مبنى رآه على وجه الأرض..
بل والكائنات نفسها تختلف..
وجوهها المستديرة..
عيونها الواسعة..

أنفها الكبير..
وحتى ذلك الفم الصغير المستفز..
لا.. هو حتمًا ليس على كوكب الأرض..
«مستحيل!!»
هتفَ بالكلمة في عنادٍ شديدٍ، فزفر صاحب الوجه المستدير، قبل أن يقول:
- ليس هذا ما اعتدته.. أليس كذلك؟!
قال في إصرارٍ:
- بلى.. هذه ليست الأرض التي أعرفها.
صمت صاحب الوجه المستدير لحظةً، ثم قال:
- أو ليس الزمن الذي تعرفه.
بهت «شريف» لقوله، فالتفت يحدِّق في وجهه في شدة، قبل أن يغمغم بحلق جافٍّ:
- الزمن؟! هل تعني ما أخشاه؟!
أومأ صاحب الوجه المستدير برأسه، قائلًا:
- نعم.. إنني لست في الزمن الذي تعرفه واعتدته.
وامتقع وجه «شريف» في شدةٍ..
ليس في زمنه!!
هل يعني ذلك الشيء ذلك بالفعل؟!
هل انتقل بوسيلةٍ ما عبر الزمن..
أفلام طالما أحبها..
بل وعشقها..
أفلام فجَّرت في خياله عشرات التساؤلات والاحتمالات..
وربما حلم يومًا بأن يكون أحد المسافرين عبر الزمن..
ولكن أن يحدث هذا بالفعل، فهو أمرٌ مستحيلٌ!!
مستحيل تمامًا..
« أنحن في زمنٍ آخر؟!..»
جفَّ حلقه في شدةٍ وهو يلقي سؤاله هذا، فتطلَّع إليه صاحب الوجه المستدير، متسائلًا في قلقٍ:
- هل تشعر بالعطش؟!
أومأ «شريف» برأسه إيجابًا، فلوَّح صاحب الوجه المستدير بيده في الهواء، فانفتحت فجوة في الجدار، التقط منها زجاجة معدنية ذات تكوين أسطواني منتظم، وناولها لـ «شريف»، الذي أمسك بها في حذرٍ متوترٍ، جعل صاحب الوجه المستدير يغمغم في أسى:
- ما زلت لا تثق بنا.
قال «شريف» في عصبية:
- لست أثق حتى في أنني مستيقظ.
خيِّلَ إليه أنَّ صاحب الوجه المستدير يبتسم، ففتح الزجاجة، وارتشف رشفة منها في حذرٍ، ولكن الماء بدا له نقيًا عذبًا، فراح يروي عطشه منه بلا حذرٍ، مما جعل صاحب الوجه المستدير يبتسم، فمسح «شريف» شفتيه، وهو يعيد إغلاق الزجاجة، قائلًا:
- الماء سرُّ الحياة.

حاول شريف أن يبتسم وهو يقول:
- لم أكن بحاجة إلى السفر لأربعين قرنًا في المستقبل حتى أدرك حقيقة بسيطة كهذه.
بدت الدهشة في الوجه المستدير، وفى نبرات صوت صاحبه، وهو يغمغم:
- هل تعتقد أنك سافرت إلى المستقبل؟!
هزَّ «شريف» كتفيه، وأشار إلى ما حوله، قائلًا:
- أظن هذا يبدو واضحًا.
صمت صاحب الوجه المستدير لحظةً أخرى، ثم قال:
- كثيرة هي تلك الأمور التي توحي بقمة الوضوح وهي في واقعها ذروة الغموض.
قال «شريف» في حذرٍ:
- أهذا لغز آخر؟!
هزَّ صاحب الوجه المستدير رأسه نفيًا وقال:
- ماذا إذًا لو أخبرتك، إنك لست في مستقبل كوكب الأرض.
بهت «شريف»، وهو يغمغم:
- أين أنا إذًا؟!
وفي هذه المرة، طال صمت صاحب الوجه المستدير..
طال كثيرًا..
وربما أكثر مما ينبغي..
ومع صمته اشتعل فضول «شريف» والتهبت أعصابه، فهتف بكل توتره:
- أين أنا؟!
مال صاحب الوجه المستدير نحوه، وأجاب..
وهبط الجواب على «شريف» كصاعقة..
قاتلة..

* * *

الفصل الثاني عشر

« مذهلٌ بحقّ..»..
اتسعت عيون قادة (ناسا)، في قاعة اجتماعاتهم الكبيرة، واتسعت معها عينا الجنرال «دوايت»، وهو يجلس في مكتبه، في المبنى الدائري، في قلب صحراء (مصر)، وكلُّهم يتابعون ذلك الفيلم المذهل، الذي أرسله (سي-١٧) من القمر.
للوهلة الأولى، تصوَّروا أنهم يشاهدون فيلمًا عن كوكبٍ آخرَ..
السماء الزرقاء المشرَّبة بالحمرة..
السحب الرمادية، ذات الأطراف البرتقالية..
الصحراء الجبلية، المحيطة بمدينة كبيرة، لها طُرز معمارية عجيبة، تختلف تمامًا عن كل الطُّرز المعروفة على وجه الأرض..
والبراكين التي تبدو من بعيدٍ، في مؤخرة المشهد، والتي تحجبها كل حينٍ وآخر، مركَبَات شبه مستديرة، تسبح في الهواء، على نحوٍ يؤكِّد وجود مخلوقات عاقلة تقودها..
كانت الأنفاس محتبسةً، والقلوب تخفق في قوةٍ، والعيون تحمل كل انبهار الدنيا، والملامح تنقل توترًا ما بعده توتر، عندما همس صاحب الصوت الخشن بحلقٍ مُختنقٍ:
- إنه أعظم حدث عرفه القرن.
غمغم الجنرال «دوايت» عبر نظم الاتصال:
- أو أخطر حدث عرفه القرن.
انتزع أحد الحاضرين نفسه من توتره، قائلًا بصوت كالفحيح:
- إنهم لم يتركوا وسيلة للاتصال.
غمغم آخر:
- ولم يرونا وجوههم أيضًا.
حكَّ الجنرال ذقنَهُ، وهو يقول في بطءٍ حَذرٍ:
- ربما أعفونا من الصدمة.
هتفَ آخَرُ بصوتٍ مَبحوحٍ:
- هل تعتقد هذا؟!
غمغم صاحب الصوت الخشن في توتُّرٍ:
- ربما يبدون كالشياطين مثلًا، أو ذَوي بشرةٍ خضراء، كما تقول أفلام الخيال القديمة.
لهث بعضهم في انفعالٍ، في حين اعتدل الجنرال «دوايت» على مقعدِهِ، وقال مستعيدًا حزمَهُ:
- السؤال الآن هو: ما الذي يفترض علينا فعله، بعد أن تسلَّمنا الرسالة؟!
قال أحد الرجال في توترٍ:
- سؤال كان ينبغي أن تلقيه على نفسك يا جنرال.
وهتف صاحب الصوت الخشن في عصبية، مبعثها اضطرابه:
- أنت الذي كوَّنت الفريق.
تراجع الجنرال في مقعده، وهو يتمتم:
- آه.. الفريق.
تساءل أحد الرجال في قلقٍ:

- هل ستخبرهم بأمر رسالة سكان الفضاء؟!
صمت الجنرال لحظاتٍ، قبل أن يغمغم:
- في الوقت المناسب.
وعلى الرغم من دهشة الكل، عادوا يتابعون ذلك الفيلم الذي يستعرض صور الحياة الجامدة، دون رؤية مَخلوقٍ عاقلٍ واحدٍ، وتابَعُوا الكاميرا تدور حول أشجار عجيبة المنظر، و...
وفجأةً، شهقوا جميعًا في قوَّةٍ..
فما نقلته الصورة، بعد الدوران حول تلك الأشجار العجيبة، كان بمثابة صدمة شديدة العنف، جعلت صاحب الصوت الخشن يهتف مختنقًا:
- مستحيل؟!
أما الباقون، فمِن فرطِ ذُهولهم وصدمتهم، لم ينبس أحدهم بحرفٍ..
حرفٍ واحدٍ..

* * *

راجع الدكتور «أكرم» مؤشرات أجهزته للمرة الأخيرة، قبل أن يرفع عينيه إلى طاقم الفنيين التابع له، ويتلقى منهم إشارة استعداد نهائي، ثم التفت إلى المقدِّم «مشهور»، قائلًا:
- نحن على أهُبَة الاستعداد.
رفع المقدِّم «مشهور» إبهامه، وهو يقول في حزمٍ لم يخل من نبرة توتر، حاولَ عبثًا كتمانها:
- على بركة الله.
ازدرد البروفيسير «عمر» لعابَهُ في صعوبةٍ، وراح يتأكَّد من عمل أجهزته؛ لتسجيل كل لحظة، في حين شعرت «إلهام» بتوترٍ عنيفٍ يكتنفُها، وراح «أنور» يتلو بعض الآيات القرآنية، في حين مالت الدكتورة «أشلي» على الدكتور «خالد»، هامسةً:
- هل تعتقد أن هذا سيُسفِر عن شيء؟!
صمت لحظةً، ثم غمغم:
- أتعشَّم هذا.
شعر بالاهتمام الجاد في صوتها، وهي تسأله:
- ماذا يقول دينكم في هذا؟!
تنهَّد، مجيبًا:
- ألا نفقد الأمل في الله سبحانه وتعالى أبدًا.
سألته في اهتمامٍ أكبر:
- وهل يجدي هذا؟!
ابتسم ابتسامةً باهتةً، وهو يجيب:
- دومًا.
تراجعت في دهشةٍ، وحدَّقت فيه لحظةً، ثم هزَّت كتفيها، متمتمة:
- سنرى.
أشار الدكتور «أكرم» لفريقه، وبدأت عملية حصار الطاقة الكهرومغناطيسية عند الدائرة المعدنية، تحت القبة الزجاجية الكبيرة..
واحتبست أنفاس المقدِّم «مشهور» مع تلك الفرقعات الخفيفة، التي تضاعف إحساسه بها، مع التوتر العنيف، الذي سرى في جسده..

وعلى شاشة جهاز الدكتور «أكرم»، راحت الطاقة الكهرومغناطيسية، عند منتصف الدائرة المعدنية تنخفض..
وتنخفض..
وتنخفض..
ومع انخفاضها تلاحقت أنفاسُ الدكتور «أكرم»، وخاصةً مع اقتراب المؤشرات من الصفر، وراح هو يتابعها بكل توتره، قبل أن يرفع يده هاتفًا بكل انفعاله:
- الآن..
ومع هتافه دوت فرقعة قوية في المكان، مع بلوغ منسوب الطاقة الكهرومغناطيسية، عند مركز الدائرة المعدنية درجة الصفر..
وانتفض البروفيسور «عمر»، لما يراه على شاشته..
وانحبست أنفاس الجميع، مع الدائرة الحمراء، التي تكوَّنت وسط الدائرة، ثم خفقت قلوبهم بمنتهى العنف..
فمع الفرقعة، عبر جسم ما تلك الدائرة الحمراء..
وفي هذه المرة لم يكن ظِلًا داكنًا..
أو حتى باهتًا..
لقد كان جسدًا بشريًا واضحًا..
ومألوفًا..
جسدٌ بشري، عبر تلك الفجوة الحمراء في هدوءٍ، واستقرَّ ثابتًا بقدميه على الدائرة المعدنية..
واتسعت كل العيون في ذهولٍ..
وخفقت كل القلوب في انبهارٍ..
وبكل ما يعتمل في كيانها، هتفت «إلهام»:
- «شريف»..
فقد كان ذلك الجسد الذي عبر الفجوة الحمراء، في هدوءٍ وثقةٍ هو «شريف»..
المهندس «شريف فؤاد»..
شخصيًا..

* * *

لم يستطع رئيس الجمهورية المصري كبح ذلك التوتر الشديد، الذي سرى في كيانه كله وهو يشاهد ذلك الفيلم العجيب الذي يكاد يفوق كل خيال..
وطوال فترة العرض لم ينبس الرئيس ببنت شفة، حتى جاء ذلك المشهد، والصورة تدور حول الأشجار العجيبة، ثم تنقل صورة تلك الكائنات الضخمة، التي تتجوَّل فيما بدا أشبه بغابة بدائية قديمة..
مع رؤية تلك الكائنات الضخمة، قفز الرئيس من مقعده، هاتفًا:
- ديناصورات؟!
بدا مدير المخابرات، الجالس إلى جواره، مندهشًا في شدة، وهو يحدِّق في المشهد متسع العينين، قبل أن يغمغم ذاهلًا:
- إنها كذلك بالفعل.
هتف الرئيس في انفعالٍ:

- أأنت واثقٌ من أن هذا هو نفس الفيلم، الذي أرسله رائد الفضاء الأمريكي من القمر؟!
أجابه مدير مخابراته، غير قادر على كتمان مشاعره:
- الأمريكيون يتصوَّرون أنهم يستخدمون اتصالات مؤمنةً، ولكن كل شيء في الموقع ألف وواحد يتم تسجيله وحفظه، وهذا هو ما نقلوه إلى الجنرال «دوايت» بالضبط.
عاد الرئيس يتابع المشاهد على الشاشة في انبهارٍ، قبل أن يقول:
- المفترض أننا نشاهد فيلمًا عن حضارة أخرى عاقلة في الكون، ولكن أن نرى لديهم ديناصورات انقرضت في عالمنا منذ ملايين السنين، فهذا أمرٌ مُذهلٌ.
كان مدير مخابراته يشاركه ذهوله هذا، إلا أنه سيطر على مشاعره وهو يقول:
- ربما نعود وهُم إلى أصولٍ واحدةٍ.
هزَّ الرئيس رأسه، وهو يغمغم:
- أو ربما هناك تفسير آخر.
حرَّك مدير المخابرات كتفيه دون أن يجيب، فأضاف الرئيس:
- وربما يستطيع المهندس العائد تفسير ما غمض علينا.
تنحنح مدير المخابرات، وقال:
- هذا محتملٌ جدًّا، خاصة وأنه قد عادَ في قمة النشاط والحيوية، على عكس ما ذهبَ.. الأهمُّ أنه عاد في قمة التماسك والهدوء، على الرغم من التجربة العجيبة التي عاشها.
سأله رئيس الجمهورية في اهتمامٍ:
- ولماذا لم يتم استجوابه على الفور؟!
شدَّ مدير المخابرات قامته، مجيبًا في حزمٍ:
- هذا يتم الآن يا سيادة الرئيس.
سأله الرئيس:
- من يستجوبه بالضبط؟!
أجابه مدير المخابرات:
- نحن والأمريكيون يا سيادة الرئيس.
هزَّ الرئيس رأسه وهو يكرِّر مفكرًا:
- نحن والأمريكيون.
ثم التفت إلى مدير المخابرات، مردفًا:
- احرص على ألا ينفرد الأمريكيون بالحصول على أيَّة معلومات منه، مهما فعلوا أو حاولوا.
شدَّ الرجل قامته أكثر وهو يُجيب في حزمٍ:
- اطمئن يا سيادة الرئيس.. رجلنا لن يسمح بهذا.. أبدًا.
اكتفى الرئيس بهذا القولِ، ولكنه عاد يفكِّر في عمقٍ، في الكلمة التي أنهى بها مدير المخابرات عبارته الحازمة..
كلمة أبدًا..

* * *

«كيف كان الأمر بالضبط؟!»
ألقى الجنرال «دوايت» سؤالَه في توترٍ، على المهندس «شريف»، الذي تطلَّع إليه في هدوءٍ، قائلًا:

- لم أشعر بشيء في رحلة الذهاب.. كنت فاقد الوعي تقريبًا..
سأله المقدِّم «مشهور»:
- وماذا عن رحلة العودة؟!
صمت لحظةً، ثم أجاب في هدوءٍ:
- أمكنني احتمالها.
بدا الجنرال «دوايت» عصبيًا وهو يقول:
- لم يمكنك احتمالها فحسب.. لقد عبرت بكل الهدوء والثقة، وكأنك تعبر بابًا مفتوحًا.
هزَّ «شريف» كتفيه، وابتسم ابتسامة باهتة وهو يغمغم:
- هل فعلت حقًا؟!
احتقن وجه الجنرال «دوايت» في غضبٍ، في حين مال المقدِّم «مشهور» على «شريف»، يسأله في هدوءٍ، لم يخل من الفضول:
- ماذا رأيت هناك يا «شريف»؟!
التفت إليه «شريف» في بطءٍ، وبدا من نظراته أنه، وعلى الرغم من النظر إليه مباشرة، لا يراه على الإطلاق..
هذا لأن ذهنه انطلق إلى هناك..
إلى أرض أصحاب الوجوه المستديرة..
«تطلقون على تلك المسوخ اسم ديناصورات!!..»
قالها صاحب الوجه المستدير في دهشة، فغمغم «شريف» في انبهارٍ:
- هذا ما نطلقه عليها بالفعل، ولقد شاهدت العديد منها في أفلام السينما ثلاثية الأبعاد، إلا أنها المرة الأولى، التي أرى واحدة حقيقية منها.
ثم التفت إلى صاحب الوجه المستدير، متسائلًا:
- ولكن لماذا تعتبرونها مسوخًا؟!
أجابه صاحب الوجه المستدير في بساطة:
- لأنها كذلك بالفعل.. لقد كانت مجرَّد زواحف عادية، حتى كانت آخر الحروب في حضارتنا، منذ ثلاثمائة سنةً تقريبًا.. أيامها كان للإشعاعات المستخدمة تأثير مدمِّرٌ على الكثير من الكائنات، فخرج إلينا جيل مشوَّه من الزواحف والنباتات، وكلها لم تستطع التكيف مع ظروف الحياة، فبادت وانتهت.
غمغم «شريف»:
- فيما عدا الديناصورات.
لمح ما يشبه الابتسامة، على الفم الدقيق، وصاحبه يقول:
- هذا لأن التشوُّه الذي أصابها كان محدودًا.. لقد أتلف الموروث المسئول عن الحد من النمو.. كل مخلوقات الكون لديها موروث خاص بإيقاف نموها، عند حجم بعينه([28])، ولكن التأثير الإشعاعي قضى على ذلك الموروث، عند فئة من الزواحف، فلم يعد هناك ما يَحِدُّ من نموها، مما جعلها تنمو وتتعملق بلا حدود، فصارت ما تطلقون عليه في عالمكم اسم الديناصورات.
حدَّق «شريف» في الديناصورات أمامه في دهشة، ثم غمغم وهو يهزُّ رأسه:
- لم يتصوَّر أحد علمائنا قَطُّ، أنه هكذا أنشئت الديناصورات.
مرة أخرى بدا شبح ابتسامة، على فم صاحب الوجه المستدير وهو يقول:

- على الرغم من أنكم شديدو الاهتمام بها.
قال «شريف»:
- هذا طبيعيٌّ؛ لأنها كائنات انقرضت.
قال صاحب الوجه المستدير في هدوءٍ:
- كان من الطبيعي أن تنقرض؛ لأن نموها البالغ جعلها بطيئة الحركة، عاجزة عن بذل الكثير من الجهد، ولهذا فقد قضت عليها الكائنات الأصغر حجمًا، والأكثر شراسة.
«لم تجب سؤالي بعد..»
قالها المقدِّم «مشهور»، في لهجةٍ حاوَلَ أن يودعها أقصى قدرٍ من الهدوء والمودَّة، فتطلع إليه «شريف» بنظرة خاوية، وهو يجيب:
- رأيت الديناصورات.
هتفَ الجنرال «دوايت» في عصبيةٍ:
- نحن رأيناها أيضًا، في الفيلم الذي أرسله (سي-١٧) من القمر.. السؤال هو: هل تنمو الديناصورات في عالمهم، وقاموا بنقلها إلى أرضنا، في الآونة الغابرة.
التفت إليه «شريف» في هدوءٍ، قائلًا:
- الزمن كلمة لم تحصل على تعريفٍ واضحٍ بعد يا جنرال.
صاح فيه الجنرال في حدَّةٍ:
- كفى مراوغة يا مستر «فؤاد».. أريد إجاباتٍ واضحةً صريحةً.
تطلع إليه «شريف» بضع لحظاتٍ، في صمتٍ هادئٍ، قبل أن يقول:
- هل تعتقد أنك قادر على احتمالها يا جنرال.
اندهش «مشهور» للعبارة، في حين قال «دوايت» في حدةٍ:
- ليس هذا من شأنك.. أخبِرنا ما لديك فحسب.
حملت عينا «شريف» نظرةً مُتحديةً وهو يقول:
- الديناصورات لم تأتِ من عالمهم يا جنرال.. ما رأيته هو ديناصورات عالمنا.
انعقد حاجبا المقدِّم «مشهور» في شدةٍ، في حين قال الجنرال في غضبٍ شديد التوتر:
- هراءٌ.. أيُّ طفلٍ يعلم أن الديناصورات سادت الأرض منذ ملايين السنين، وقبل ظهور الإنسان على سطحها، ولكن ما رأيناه هو حضارةٌ متطوِّرةٌ، وديناصورات تتواجد معها في الحقبة نفسها.
غمغم «شريف»:
- هذا صحيح.
مال الجنرال «دوايت» نحوه، في حركة حادة، توقَّع أن يرتد «شريف» معها إلى الخلف متوترًا، إلا أن هذا الأخير ظلَّ هادئًا متماسكًا، على الرغم من صراخ الجنرال في وجهه:
- هل ستفصح عما لديك، أم...
قاطعه «شريف» بكل الصرامة:
- أم ماذا يا جنرال؟!
انعقد حاجبا الجنرال «دوايت» في شدةٍ، واعتدل بنفس الحدة التي انحنى بها وهو يقول:
- هل تتحدى الإدارة الأمريكية يا مستر «فؤاد»؟!
تضاعفت نظرة التحدي في عينيِّ «شريف»، في حين قال المقدِّم «مشهور» في صرامة:
- يبدو أنك أنت من يتحدَّى السيادة المصرية يا جنرال.

صاح الجنرال:
- نحن أمام حدَثٍ عالميّ تاريخي أيها المقدِّم.
صاح فيه «مشهور»:
- هذا لا ينفي أنك ما زلت على أرض مصرية يا جنرال.
شدَّ الجنرال «دوايت» قامته، وانعقد حاجباه في شدةٍ وهو يقول في مزيج من الغضب والصرامة والتوتر:
- ما تفعله له عواقب وخيمة أيها المقدِّم.
شدَّ المقدِّم «مشهور» قامته بدوره، وهو يقول:
- وأنا مستعد لتحملها كلها يا جنرال.
صمت الجنرال «دوايت» بضع لحظاتٍ، ثم عقد كفيه خلف ظهره وهو يقول في حزمٍ، موجِّهًا كلماته إلى «شريف»:
- المفترَض أنك مواطن أمريكيٌّ يا مستر «فؤاد»، تحلم بالاستقرار في ولاية جميلة مع زوجتك الفاتنة «درو».
ضغط حروف عبارته الأخيرة، وكأنه يرسل رسالة تهديد خفية لـ «شريف»، الذي ارتسم الغضب على وجهه وهو يقول:
- لو مسَّ أحَدُكُم شعرةً من رأس «درو»، فسوف...
قاطعه الجنرال في صرامة قاسية:
- فسوف ماذا يا مستر «فؤاد»؟!.. هل ستنشئ تنظيمًا إرهابيًا يقاتل جيش الولايات المتحدة الأمريكية؟!
نهض «شريف» يواجهه، وهو يقول في تحدٍّ غاضبٍ:
- ربما أفعل.
أمسك «مشهور» كتف «شريف»، وهو يقول في حزمٍ:
- لا داعي للتمادي يا «شريف».. الأمر حقًا لا يستحق هذا.
التفت إليه «شريف» في حدةٍ:
- هل تعتقد هذا؟!
ربت «مشهور» على كتفه، قائلًا:
- اهدأ يا «شريف».. اهدأ.
صاح «شريف»:
- أهدأ؟!.. هذا الحقير يهددني بزوجتي، وكأنه زعيم عصابة، وليس جنرالًا في الجيش الأمريكي، ولكنه يجهل ما يمكنني فعله، بعدما اكتسبت ما اكتسبته.
غمغم المقدِّم «مشهور» في دهشةٍ:
- ما اكتسبته؟!
أما الجنرال «دوايت»، فقد أمسك ذراعه في قوةٍ، وهو يهتف به:
- وما الذي اكتسبته يا مستر «فؤاد»؟!.. ماذا فزتَ به من رحلتك هذه؟!
التفت إليه «شريف» في حدةٍ:
- أكثر مما تتصوَّر يا جنرال.
هتف الجنرال بكل اللهفة:

- مثل ماذا؟!

اعتدل «شريف» في تحدٍّ، قائلًا:

- في التاسع من يوليو، وبالقرب من منطقة بحر العواصف، على سطح القمر، التقى رائد الفضاء (سي-١٧) بشخصٍ لا يرتدي أي زِيٍّ فضائي، وذلك الشخص أعطاه خطابًا، وقطعة من بشرته، والخطاب كان يحوي خريطة لنقطة اتصال متطوِّرة، تحت سطح القمر، وفيها شاهد (سي-١٧) فيلمًا عن عالمٍ عجيبٍ، تتجوَّل فيه الديناصورات، وسط حضارة متقدِّمة، تحت سماء زرقاء مشرَّبة بالحمرة.

ازداد انعقاد حاجبي المقدِّم «مشهور»، وهو يغمغم:

- يا إلهي!!

أما الجنرال «دوايت» فقد ارتدَّ كالمصعوق، وهو يهتف:

- مستحيل!..كيف عرفت كل هذه التفاصيل بمنتهى الدقة؟!.. إننا لم نخبر بها أحدًا تقريبًا.

مالَ «شريف» نحوه، وأجاب في تحدٍّ كبيرٍ:

- ذلك الذي التقى به (سي-١٧)، على سطح القمر، لم يكن مخلوقًا فضائيًا من عالم آخر يا جنرال.

ثم مالَ أكثر، وتضاعفت نبرة التحدي في كلماته وهو يضيف:

- لقد كان أنا.

وانتفض جسد الجنرال «دوايت» بمنتهى العنف..

فهذا كان يفوق أسوأ كوابيسه.. بمائة ألف ضعف..

على الأقلِّ.

* * *

الفصل الأخير

« لا.. لا يمكنني فعل هذا..»

هتفَ «شريف» بالعبارة في ذعرٍ، فمسَّ صاحب الوجه المستدير كتفه، كعادته كلما حاول تهدئته وهو يقول:

- ولكنك وحدك قادر على هذا.

هتف في عصبية:

- لماذا يكرِّر الكل هذا، هنا وفي عالمي؟!

مسَّ صاحب الوجه المستدير كتفه مرة أخرى في رفقٍ، وقال:

- عندما كشفنا المسارات الثعبانية لأوَّل مرةٍ، صُدِمْنَا أننا لا نستطيع الانتقال إلى زمنٍ آخرَ كمشاركين، وإنما فقط كمشاهدين.. وأوَّل محاولاتنا نقلتنا إلى مرحلةٍ غَيْرِ مُتطوّرةٍ، مما أعجزنا عن التواصل معهم، وإيصال رسائلنا إليهم.. كنا بالنسبة لهم مجرَّدُ أطيافٍ حمراءَ دَاكِنةٍ، ليس لها ملامح أو صوتٌ.. ثم طوَّرْنَا أساليبَنَا، وكرَّرنا محاولاتنا أكثر من مرة، وكنا نتطوَّر بالفعل، ولكن تطوُّرنا أسفر فقط عن ظهورنا في وضوحٍ، بدلًا من ظهورنا في أطوال موجية لا تلتقطها العيون البشرية.. ولكن مع كشفنا لمسارات ثعبانيةٍ جديدة، أمكننا العبور إلى مرحلةٍ متطوِّرة في زمنك، ولكننا ما زلنا عاجزين عن التواصل بشكلٍ واضحٍ.

سأله «شريف» في عصبيةٍ:

- وهل تتصوَّرون أن أنجح أنا في هذا؟!

أجابه صاحب الوجه المستدير في حسمٍ:

- بكل تأكيد.. وصولك إلى هنا كان معجزة علمية، لم يتصوَّر علماؤنا حدوثها.. طفرة زمنية، أدهشتنا بأكثر مما أدهشتك ..ولكنها فتحت أمامنا مجالًا فريدًا للتواصل مع زمنك.

تساءل «شريف» مرةً أخرى:

- ولماذا تفترضون أن أنجحَ أنا؟!

مالَ صاحِبُ الوجه المستدير نحوه، مُجيبًا:

- أنت تنتمي إلى الزمن الذي ستذهب إليه، ولهذا سيكونُ تجسُّدك فيه طبيعيًا.

تردَّد «شريف»، وهو يغمغم في حذرٍ:

- لكي أوصل رسالتكم إلى زمني؟!

هتف صاحب الوجه المستدير:

- بالضبط.

لاحظ توتر «شريف»، فعاد يمس كتفه، مضيفًا:

- وما أكسبناك إياه، بإضافة مورثات دب الماء إلى مورثاتك، سيجعلك قادرًا على التعايش في كفاءة إلى حيث سنرسلك في المرة الأولى.

تراجع «شريف» مصدومًا، وهو يقول:

- في المرة الأولى؟!.. ماذا تخططون لي بالضبط؟!

أجابه صاحب الوجه المستدير في هدوءٍ:

- ستصبح أوَّل سفير بين حضارتين.

هتف معترضًا ومستنكرًا:

- ومن أدراك أنني سأقبل هذا المنصب؟!
مال صاحب الوجه المستدير عليه، قائلًا:
- ألا تريد أن تعلم إلى أين ستنتقل، في المرة الأولى؟!
حمل صوت «شريف» كل توتره، وهو يتساءل في حذرٍ:
- إلى أين؟!
أشار صاحب الوجه المستدير إلى أعلى مجيبًا:
- القمر.
واتسعت عينا «شريف» عن آخرهما في رعبٍ، و...
«لماذا القمر؟!»
ألقى المقدِّم «مشهور» السؤال في اهتمامٍ كبيرٍ، شاركه فيه الجنرال «دوايت» بنظرةٍ متوتِّرةٍ، فأدار «شريف» عينيه إليه متسائلًا، فتابع بنفس الاهتمام:
- ما دمت قادرًا على التجسُّد في زمننا، كما فعلت اليوم، فلماذا وقع اختيارهم على القمر؟!
ابتسم «شريف» ابتسامة هادئة وهو يجيب:
- كانت وسيلة تحفيزية للغاية.. ألا تتفق معي في هذا؟!.. أقصد معهم.
أدار المقدِّم «مشهور» عينيه إلى الجنرال «دوايت» الذي قال في صرامةٍ متوترةٍ:
- كانت وسيلة ناجحة للغاية.. وسيلة جعلتنا نصنع كل هذا.. والأهم أنها جعلت اختيارنا يقع عليك.
عاد «شريف» يبتسم تلك الابتسامة الهادئة وهو يقول:
- السفر عبر الزمن له تداعيات، يعجز العقل العادي عن استيعابها أو إدراكها.
نقل المقدِّم «مشهور» بصره بينهما، قبل أن يقول:
- هذا صحيح.. ظهورك على القمر، وترك عيِّنة جيناتك المحسَّنة، جعل قادة (ناسا) يضمونك إلى الفريق، وهذا ما تسبَّب في سفرك عبر الزمن، حتى إن العقل يحار في البحث عن بداية كل هذا، والمسار الصحيح للأحداث.
ابتسم «شريف» دون أن يجيب، في حين قال الجنرال «دوايت» في عصبية:
- وما معنى الرسالة؟!.. (كنا هنا قبلكم)!!.. كيف يمكن أن يصل المستقبل إلى القمر قبلنا.
اعتدل «شريف» في اهتمامٍ شديدٍ، وهو يقول:
- هذه هي قمة الارتباك الزمني.. السفر عبر الزمن أرسلني إلى ما رأيتموه في ذلك الفيلم.. إلى حضارة أخرى على كوكب الأرض، في زمنٍ آخر.
غمغم «مشهور»:
- في المستقبل البعيد.
التفت إليه «شريف»، قائلًا:
- بل في الماضي... الماضي السحيق.. جدًّا.
وارتد الجنرال «دوايت» والمقدِّم «مشهور» مصعوقين..
لقد كان هذا مفاجأة..
مفاجأة ساحقة..
وبحق..
« كيف يمكن أن تكون حضارتكم أقدم منا، وقد بلغت من التطوُّر شأنًا لم نبلغه حتى الآن؟!
ألقى «شريف» السؤال على صاحب الوجه المستدير في دهشة، فأجابه هذا الأخير في رفقٍ:

- لقد أذهلنا هذا، في أوَّل رحلةٍ إلى زمن تاريخكم المعروف.. أوَّل ما أدهشنا أنه لا ذكر لحضارتنا في تاريخكم، ولا ذكر لحضارتكم في تاريخنا، وكأنَّ كلًّا منا ليست لديه أية فكرة عن الآخر.
غمغم «شريف»:
- هذا صحيح.
تابع صاحب الوجه المستدير، دون أن يتوقَّف عن تعليقه:
- في البداية تصوَّرنا أننا قد انتقلنا إلى بُعدٍ آخر، يتطوَّر فيه التاريخ على نحوٍ مُختلفٍ، ولَكِنَّ علماءنا أكَّدوا أن المسار الثعباني قد نقلنا أكثر من مليون عامٍ إلى المستقبل.. وكان بالنسبة لنا مستقبلًا مخيفًا، لا ذِكر على الإطلاق فيه لوجودنا، مما يعني أن حضارتنا قد انهارت وفنَتْ، دون أن تترك خلفها أدنى أثرٍ..
هذا أفزعنا بالتأكيد، خاصةً وأن حضارتنا قد بلغت مرحلة هادئة، بلا أيَّة صراعات؛ فلماذا فنت؟!.. لماذا؟!
تساءل «شريف»:
- هل تريدوننا نحن أن نبحث عن هذا؟!
هزَّ صاحب الوجه المستدير رأسه نفيًا، وقال:
- لا جدوى من هذا.. من الواضح أن سببًا عنيفًا أفنى حضارتنا، وأبادها من الوجود.. ولقد حاولنا نحن اختيار زمنِ هبوطنا، ولَكِنَّ المسارات الثعبانيَّة كانت تقودنا إلى حيث تريد، لا إلى حيث نريد.
سأله في توترٍ:
- لماذا تريدون الاتصال بحضارتنا إذًا؟!
أجابه في سرعةٍ:
- لنحذِّرَكم.. لنفتح عيونكم على ما تسيرونَ فيه.. حضارتكم عنيفةٌ قاسيةٌ.. وحشيةٌ في كثير من الأمور، وتُسيئونَ إلى بيئة الأرض إساءات بالغة، وكأنكم تقتلون أنفسكم قبل أرضكم.
حدَّق فيه «شريف» لحظاتٍ في دهشة، ثم تساءل في خفوتٍ:
- وهل تعتقد أن أحدًا سيصدق قصتي في زَمَني؟!
بدت ابتسامة هادئة على الشفتين الرقيقتين، وصاحب الوجه المستدير يقول:
- سنترك لهم على القمر ما يثبت قصتك.
«على القمر؟!»
هتفَ بها الجنرال «دوايت»، في توترٍ شديدٍ قبل أن يستطرد:
- إذًا فبؤرة الاتصال تحت القمرية هي وسيلة لإثبات وجودهم!!
أشار «شريف» بيده، قائلًا:
- ووسيلة ليثبتوا أنهم كانوا هناك قبلنا أيضًا.
غمغم المقدِّم «مشهور»:
- وإثبات مدى ما وصلوا إليه، فقاعدة تظل صالحةً للعمل بعد أكثر من مليون عام، لهو أمرٌ مذهلٌ بحَقٍّ.
ران صمتٌ ثقيلٌ على المكان، بعد عبارة المقدِّم «مشهور» الأخيرة، قبل أن يتنحنح الجنرال «دوايت» وهو يقول في خفوت:
- مستر «فؤاد».. أريد منك وعدًا.
«أيُّ وعد طلبه؟!»

ألقى رئيس الجمهورية المصري السؤال على مدير مخابراته، فأجابه هذا الأخير في سرعةٍ:
- أن يبقي ما حدث سرًا، ولا يخبر به حتى باقي أفراد الفريق.
صمت الرئيس لحظاتٍ قبل أن يسأل:
- وهل منحه المهندس «شريف» هذا الوعد؟!
أشار مدير المخابرات بسُبَّابته، قائلًا:
- مقابِلُ وعدٍ آخر يا سيادة الرئيس.. أن تتركه الحكومة الأمريكية وشأنه، وألا تحاول إفسادَ حياته أو حياة زوجته.
تساءلَ الرئيس في قلقٍ:
- وكيف يمكنه أن يثق في وعودهم؟!
ابتسم مدير المخابرات وهو يجيب:
- بأن منحنا نسخةً من كل ما حدث مع عينة من بشرته وتسجيل حيٍّ، يروي فيه كل ما حدث بأدق التفاصيل.
هتف الرئيس:
- حقًّا؟!
اتسعت ابتسامة مدير المخابرات، وهو يجيب:
- إنه مصري يا سيادة الرئيس.
«لست أثق في هذا..»
قالها الدكتور «خالد» في قلقٍ وهو يستقل تلك الحافلة التي تحمل أفراد الفريق لإعادتهم إلى منازلهم، فغمغمت «أشلي»:
- ما دام «شريف» لم يعد معنا، فهناك حتمًا سِرٌّ آخرُ، لم يبلغونا به.
قالت «إلهام» في توترٍ:
- لقد طلبوا منا الحفاظ على سر حالة الانتقال عبر الزمن، ولكنني أعتقد أن الأمر يفوق هذا.
أشار «أنور» بيده، قائلًا:
- أتفق معك.
ران عليهم الصمت لحظةً، وتطلَّعوا إلى الدكتور «أكرم»، الذي يرفض مجرَّد مناقشة الأمر، ثم التفتت «أشلي» إلى الدكتور «خالد» تسأله في تردُّدٍ:
- قل لي يا دكتور «خالد».. ألديك امرأة هنا في (القاهرة).
وابتسمت «إلهام» ..
« حبيبي..»
هتفت بها «درو»، وهي تقفز لتتعلَّق بعنق «شريف» الذي احتضنها في حنانٍ، وقبَّلها في حرارةٍ، قائلًا:
- أوحشتني يا حبيبتي.
هتفت:
- كدتُ أموت شوقًا إليك.
ابتسم وهو يمنحها قبلةً أخرى، قائلًا:
- لقد عدت كما وعدتك.
احتضنته في قوة:

- لا تفارقني بعد اليوم.. لست أحتمل العيش بدونك.
التقط نفسًا عميقًا، وابتسم قائلًا:
- أعِدُك ألا تشعري بغيابي أبدًا.
واحتضنته في قوَّةٍ أكثر..
« المشكلة أنه مصري..»..
هتفَ صاحب الصوت الخشن بالعبارة في عصبيةٍ شديدةٍ، جعلت الجنرال «دوايت» يقول في صرامة قاسية:
- وهل تكرهه لأنه مصري، أم لأنك يهودي.
انتفض صاحب الصوت الخشن، هاتفًا:
- وما شأن الديانة بالجنسية؟!
أجابه الجنرال في صرامةٍ أكثر:
- سل أقاربك الذين يشترطون الأم اليهودية لمنح الجنسية.
تراجع صاحب الصوت الخشن، والتقى حاجباه الكثان في شدةٍ، فتابَعَ الجنرال بكل الصرامة والحزم:
- ذلك المصري اختاره القدر ليكون أهمَّ بشَريٍّ على وجه الأرض، في هذه الحقبة من الزمن.. البشري الوحيد، الذي يربط الماضي بالحاضر.. وربما بالمستقبل أيضًا.. ثم إنه وسيلتنا الوحيدة للاتصال بأصولنا القديمة.. بحضارة مَن كانوا هنا قبلنا.. مَن سبقونا على الأرض، ولم يتركوا لنا ما نعرفهم به.. حضارة الذين.. قبْلَنا.
قالها وكيانه كله يرتجف انفعالًا وحماسًا..
فلأوَّل مرة، يدرك البشر أنهم لم يكونوا أوَّل مخلوقات عاقلة سكنت الأرض..
فهناك الأوائل، الذين سبقوهم..
والذين كانوا.

* * *

تمت بحمد الله
الرحاب ١٤ /٦/٢٠٢٢م

Notes

[←1]

ناسا: (NASA) : وكالة الفضاء والطيران الأمريكية.

[←2]

وكالة ناسا (Nasa): هي الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي مسئولة عن الأبحاث المدنية والعسكرية الفضائية طويلة المدى.

[←3]

هَبِلَ: تليسكوب فضائي ضخم، يدور حول الأرض، ولقد ساهم في إمداد الفلكيين بأفضل وأوضح صور للكون، بعد معاناة طويلة مع التليسكوبات الأرضية، التي تلوثها الأتربة، وتفسد صورتها حركة الهواء، وهو لم يساهم في وضع صور أفضل فحسب، ولكن في تطوير علم فيزياء الفضاء أيضًا.

[←4]
كان الإغريق القدامى يتصورون أن آلهة الكون تقطن أعلى جبل أوليمبوس، حيث يحكمهم (زيوس) كبير الآلهة، وإله الرعد والبرق، وزوجته (هيرا) آلهة الزواج، ونسجوا الكثير من الأساطير حول من تصوروا في عقيدتهم الوثنية أنهم آلهة.

[5←]

الحادي عشر من سبتمبر: يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، شهدت الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الهجمات الإرهابية، حيث تم تحويل مسار أربع طائرات ركاب مدنية، وتوجيهها لتصطدم اثنتان منها ببرجيّ التجارة العالميين في (مانهاتن)، ومبنى (البنتاجون)، في حين سقطت الرابعة قبل بلوغ هدفها، الذي لم يعلن عنه أبدًا.

[←6]

حقيقة علمية.

[←7]

حقيقة.

[←8]

كلها ظواهر غامضة عجيبة، تنتشر في بقاع مختلفة من الأرض، ولم يجد العلم لها تفسيرًا مقبولًا حتى الآن.

[←9]
الميتافيزيقا: علم ما فوق الطبيعيات، يعني بدراسة كل الظواهر غير الطبيعية، التي تتعارض مع قواعد الفيزياء المعروفة، ولا يوجد تفسير علمي معروف لها.

[←10]

حادثة (روزويل) : في أحد أيام شهر يوليو، عام ١٩٤٧م، استيقظ أهالي بلدة (روزويل)، في ولاية (نيومكسيكو)، على دَويٍّ هائلٍ، ونيران في الأفق، وقالت التقارير الأوَّلية بسقوط طبق طائر في المنطقة، ولكن سرعان ما حاصر الجيش الأمريكي المنطقة، ونفى هذا تمامًا.

[←11]
يوري أليكسافيتش جاجارين (٩/٣/١٩٣٤- ٢٧/٣/١٩٦٨م)، أول رائد فضاء يدور حول الأرض، في المركبة السوفيتية (فوستوك-١).

[←12]
نيل أرمسترونج (٥/٨/١٩٣٠- ١٢ ٢٥/٨/٢٠م): أول رائد فضاء يمشي على سطح القمر، الذي سافر إليه على متن (أبوللو -١١) في ٢١ يوليو ١٩٦٩م.

[←13]

حقيقة.

[←14]

). نظرية علمية فلسفية.

[←15]

) التبت: منطقة ودولة سابقة، في (آسيا) الوسطى، كان يطلق عليها قديمًا اسم (سقف العالم؛ نظرًا لأنها تقع على ارتفاع (٤٩٠٠) مترًا، واليوم لها حكومة في المنفى، بقيادة الدلاي لاما، بعد أن احتلتها (الصين).

[←16]

نظرية علمية

[←17]

حقيقة.

[←18]

نظرية علمية.

[←19]

الكتاب موجود بالفعل.

[←20]

) القارات السبع: (آسيا)، (أوروبا)، (أفريقيا)، (أفريقيا)،(استراليا)،(أمريكا الشمالية)،(أمريكا الجنوبية)، (القارة القطبية الجنوبية) (انتاركتيتا)

[←21]
) تقول النظريات الجغرافية القديمة أن الأرض كانت تتكون من قارتين كبيرتين(جنوانا) و(لوراسيا)، ومحيط هائل هو (تيثس) ثم حدثت زحزحة للقارات، مع مرور الزمن، فصارت (جندوانا) و(لوراسيا) سبع قارات، وكلتاهما كانت جزءًا من القارة الأم (بانجيا).

[←22]
تارديجرادا: أو (هيبيبوس ديجارديني)، كائن مجزَّء، ثماني الأرجل، له خاصية مدهشة، تجعله يحتمل أقسى الظروف المعيشية، مثل غياب الماء والهواء، ودرجات الحرارة شديدة الارتفاع والانخفاض.

[←23]

حقيقة علمية

[←24]
) لقاء من النوع الثالث: لقاء مباشر بين البشر وكائنات الفضاء.

[←25]

) الثقوب الدودية: هي في حقيقتها ممرات دودية تخيلية، موجودة داخل الثقوب السوداء، وهي - حتى الآن- مجرَّد ثقوب أثبتت المعادلات الرياضية وجودها فحسب؛ نظرًا لأن صعوبة الكشف عما يحويه الثقب الأسود، منعت رصدها، حتى لحظة كتابة هذه السطور.

) حقيقة علمية.

[←26]

[←27]

الغلاف الجوي للمريخ، بغازاته المختلفة، يمنح سماءه لونًا أحمر فحسب.

[←28]

حقيقة علمية طبية.